

العنوان:	ثورات بلاد غمارة خلال الفترتين المرابطية و الموحدية
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	العمراني، محمد
المجلد/العدد:	مج 6, ع 17
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1999
الصفحات:	102 - 135
رقم MD:	130104
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase, EcoLink, HumanIndex
مواضيع:	الدولة الموحدية، المغرب، التاريخ، الصراعات السياسية، الثورات الشعبية، الدولة المرابطية، المشكلات الإجتماعية، الأحوال الإقتصادية، الفتوحات الإسلامية، القرن 6 هـ، التراث الثقافي، غمارة
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/130104

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

ثورات بلاد غمارة خلال الفترتين المرابطية والموحدية

ذ.محمد العمراني*

مقدمة:

شهد القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي قيام مجموعة من الفتن والثورات في منطقة غمارة.وارتبطت هذه التمردات في كثير من الأحيان بأشخاص عرفوا إما بصلاحهم وزهدهم،أو بادعائهم الهداية والإتيان بالخوارق والمعجزات.ويبقى تفسير هذه الثورات ناقصا إذا لم يتم الرجوع إلى دراسة المجال الذي تحركت فيه هذه القبائل،وكذا معرفة بعض الوقائع التي أثرت في ذهنية المجتمع الغماري منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأقصى وإلى حدود قيام الدولة المرابطية.كما أن المعلومات القليلة التي تمدنا بها المصادر حول هذه الفتن أدت إلى اهتمامنا بالموروث الثقافي لهذه القبائل وذلك لما له من تأثير على صياغة الأحداث التي عرفتها المرحلة المدروسة.

ويبقى استنطاق المصادر الجغرافية الوسيطية ، وخصوصا تلك التي عاصرت أحداث هذه الانتفاضات،أو كتبت خلال الفترة القريبة منها،مسألة ضرورية للكشف عن بعض المعطيات التي بإمكانها إماطة اللثام عن كثير من القضايا الغامضة التي لا تزال تلف تاريخ بلاد غمارة.

غمارة بين صعوبة تحديد ومشكل توطين الامتداد القبلي:

إن تحديد مجال تحرك قبائل غمارة تواجهه صعوبات كثيرة،فالمصادر الجغرافية الوسيطية غير واضحة في هذا الصدد،زيادة على عدم اتفاق المؤرخين حول أصل قبائل غمارة وحدودها الجغرافية(1).ويرجع سبب ذلك إلى كون النطاق الذي تواجدت فيه قبائل غمارة لم يكن حكرا عليها فقط،بل نافستها فيه كذلك قبائل صنهاجة.وهذا ما تعكسه المصادر بشكل جلي عندما تتحدث عن هذه القبائل فهي تقرنها دائما بقبائل صنهاجة(2).ولعل ذلك ما جعل هذه الكتابات تقع في خلط أحيانا،عندما تريد الحديث عن مناطق تواجد غمارة ، أو أثناء إشارتها إلى بعض قبائلها وبطونها(3)،كما أن المصادر تستعمل غمارة كإشارة إلى المجموعة البشرية ، وأحيانا أخرى للحديث عن المجال

---

* أستاذ باحث كلية الآداب مكناس

الجغرافي(4).ويفرض علينا الموقف ضرورة تحديد المصطلح من خلال نصوص المؤرخين والجغرافيين،كخطوة أولى،قبل الحديث عن حدود غمارة جغرافيا،وعن إمكانياتها الاقتصادية.

ذكر مؤلف العبر بأن غمارة قبيل من بطون المصامدة(5)،وأشار إلى أن السبب في تسميتهم بذلك الاسم هو"قول بعض العامة أنهم عرب غمروا في تلك الجبال فسموا"غمارة"(6)،وقال كذلك بأنهم شعوب وقبائل لا يمكن حصرها،لذلك اكتفى بذكر بطونهم المشهورة،والتي حددها في "بنو حميد" ،"متيوة"،بنونال"،"أغصاوة " بنو زروال" و"مجكسة" (7).وجاء في "كتاب الأنساب" لابي حيان(8) أن غمارة "فرقة من المصامدة كانت تستوطن

بلاد غمارة إلى حد طنجة وسبتة"،وذكر قبائل أخرى لم ترد في كتاب العبر(9)،وجاء في "مفاخر البربر"الذي اعتمد على كثير من أهل العلم بالانساب:"ان غمارة اسم رجل،وهو غمار بن مصمود لصلبه"(10)غير أن ما يثير الانتباه في كلام المؤرخ المجهول عن غمارة،أنه يذكرها باعتبارها إحدى القبائل البربرية المنتمية الى البرانس الى جانب المصامدة وصنهاجة ، وغيرهما من القبائل،دون أن يؤكد على أنها إحدى الفرق المصمودية.وقال بأن:"لها شعوب كثيرة وقبائل جمة،وبطون، و أفخاد ، وعمائر غزيرة "(11).في حين ينص فيه ابن خلدون على أن غمارة ما هي إلا إحدى بطون المصامدة(12)،ويبرهن على رأيه هذا بأن"قصر المجاز" ينسب الى المصامدة الذين يستوطنون المنطقة الممتدة ما بين سبتة وطنجة"(13).

لم ينحصر هذا التضارب بين روايات المؤرخين ونصوص الجغرافيين على مستوى تحديد أصل غمارة فقط،وإنما تعداه كذلك إلى مستوى تحديد مجال تحرك هذه القبائل.فيشير بعض الاخباريين إلى أن غمارة كانت تستوطن جبال الريف بساحل البحر الرومي من "غساسة" إلى "طنجة" مرورا عبر "نكور"،"بادس" تيكساس"،"تيطاوين"،"سبتة"،"فقصر المجاز" عبر خمس مراحل،أو أكثر حيث اتخدوا من جبالها ملجأ،عبر خمس مراحل أخرى عرضا إلى حدود بسائط قصر كتامة ووادي ورغة(14).وكان هذا المجال يمتد في الماضي باتجاه الجنوب،عندما كانت قبيلة بني حسان الغمارية تستوطن الساحل الممتد من أصيلا إلى آنفا(15).وإذا كانت رواية العبر قد أعطت تحديدا للامتداد الجغرافي لهذه القبائل،فإن أبا حيان اكتفى فقط بتحديد الجهة الغربية لبلاد غمارة والمتمثلة في طنجة وسبتة(16)،مع اشارته لبعض المراكز الحضرية المتواجدة في هذا النطاق مثل تيطاوين وكتامة(17).وتتميز معطيات الجغرافيين الوسيطيين بدقتها في هذا الصدد،فالادريسي يشير إلى أن مرسى"انزلان" يعتبر أول بلاد غمارة،بينما تعتبر بادس "آخرها"(18).وبلاد غمارة في منظوره "هي عبارة عن جبال متصلة بعضها ببعض،وطولها حوالي ثلاثة أيام"،ويحددها جنوبا بجبال الكواكب التي تمتد على طول أربعة أيام حيث تنتهي قرب مدينة فاس،ويسكنها غمارة(19).ويلاحظ من خلال هذا التحديد أن هناك تمييزا بين غمارة المجال،وبين غمارة القبيلة،ذلك أن منطقة غمارة لا تعني عند الادريسي بالضرورة مجال استقرار سكان هذه القبيلة،كما هو الشأن -مثلا-بخصوص "حصن تيقساس" الذي يقول عنه أنه "حصن معمور

في غمــارة،لكـن أهلــه بينـهم وبيـن غمــارة حـرب دائمــة"(20).أمــا مؤلـف كتــاب الاسـتبصــار فيحصر غمارة في الجبل الذي يقول عنه،إنه من الجبــال المشـهورة،تسكنه قبـائل كثيرة مـن غمارة وهي أمم لا تحصى.وأضاف بأن طول هذا الجبل مسيرة ستة أيام وعرضه نحو ثلاثة أيام(21).أما ابن سعيد فيحدد المجال الغماري ، دون الإشارة إلى القبائل التي تسـتوطنه،فذكـر أنه"أول ما يلقاك في بر العدوة بعد سبتة جبل غمارة العالي الطول،العريض،فيه من الامم ما لا يحصيهم إلا الله تعالى"(22).

يتضـح أن نطاق تحرك قبائل غمارة شاسع ومطــاط فـي آن واحـد،فـهو يشـرف علـى البحر المتوسط شمالا(23)،ويمتد جنوبا إلى قرب مدينـة فاس.كمــا أن قبـائل غمـارة وجيرانـها تضطر،وفي كثير من الاحيان،اللجوء إلى الجبال والحصون المرتفعة قصد الاحتماء بها عند خروجها عن السلطة الشرعية مرابطية وموحديـة(24).فالوضعيـة غير مسـتقرة لسكان هـذه المنطقة مـن جهـة (25)،وكـذا عـدم إلمـام المؤرخيـن والجغرافييـن الوسـيطيين بالمجموعـات القبلية المتواجدة ببلاد غمارة من جهة أخرى،كان مسؤولا عن عدم تقديـم صـورة واضحـة عن الاحداث السياسية والفتن التي عرفتها المنطقة خلال القرن السادس الـهجري/12 م.وهـذا مـا عكسته لنـا طريقـة نقل الخبر عـن ثـورة أو فتنــة حدثـت بـــهذا الجـزء مــن المغـرب الاقصى(26).

الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لمنطقة غمارة وأثر ظهور سلطة مركزية على وضعية المجتمع الغماري.

يعتبر هذا النطاق الجغرافي،وحسـب شـهادة الادريسـي وصـاحب الاسـتبصـار،مجـالا غنيا من حيث الثروات الطبيعية خاصة الأشجار(27)،فقـد أشـار صـاحب "كتـاب الجغرافيـا" إلـى وجـود "الأرز" الـذي كـان يسـتخدم فـي صناعــة الأســاطيل،كمــا اسـتعمل فـي مجــال البناء(28).وتحدثت كتب الجغرافيا عن مناطق زراعية مهمة لا تحصى،وجاء في بعضـــها أن "غمارة من أخصـب جبـال المغـرب"(29).فـهي تتوفـر علـى منتزهـات وأوديـة لا توجـد فـي غيرها من الأماكن،كثيرة الأعنـاب"والفواكه والعسل (30).ولـم تنحصـر الأهميـة الاقتصاديـة لمنطقة غمارة في خصوبة أراضيها الزراعية فحسب،بل وفي توفرها علـى موانـئ أو قربـها منها حيث لعبت دورا مهما في العلاقات التجارية بين مختلف جهات غمـارة(31).وتـم تنظيـم الاسواق في عدة مراكز مثل:سبتة ، بادس ، تيكساس، وقصر عبد الكريم(32).وزادت أهميـة هذه الحركة التجارية بفعـل عمليـة العبـور المستمر مـن الأندلـس وإليـها عـبر سـبتة"وقصـر مصمودة"(33) الذي يأتي على رأس المجاز الاكبر إلـى ديـار الأندلـس"(34).ويتواجد بـهذه الجهة كذلك نشاط الصيد البحري(35)،الذي حرك بعـض الأنشـطة الحرفيـة (36)،وفـي نفس الوقت تنشيط المبادلات التجارية(37).

إن أهمية منطقة غمارة استراتيجيا واقتصاديا كانت على ما يبدو دافعـا للاهتمـام بـها منذ مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.ذلك أن جغرافيا عاش خلال القـرن السـادس هـ/12م،لاحظ أن هناك آثارا كثيرة للأوائل،ممــا يـدل علـى قـدم تعمير هـذه الجهـة(38).وإذا كانت هذه الكتابات قد أكدت على استمرارية غنى المنطقــة مـن الناحيـة الفلاحيـة وكـذا علـى أهمية مدنها التجارية،فإن قبائل غمارة لم تسـتفد مـن خيراتـها نظـرا لمحاصرتـها فـي أعـالي

الجبال منذ بداية الفترة المرابطية.ويذكر صاحب الاستبصار في هذا الصدد عن جبال غمارة أن فيها "حصون كثيرة تمتنع فيها غمارة.وتتفق على الولاة ،وبذلك عرفوا حتى كسر الأمر العزيز شوكتهم،وأباد شرارهم واستأصل شأفتهم(39).

وقد كان لتحكم غمارة في ممر استراتيجي للعبور إلى الأندلس دافعا وراء تشديد الخناق عليهم،والعمل في نفس الوقت على إجهاض أي محاولة تمردية من شأنها أن تعرقل المشروع المرابطي أو الموحدي بشبه الجزيرة.

وإذا كانت دراسة الإطار الجغرافي قد مكنتنا من بعض الأدوات المساعدة على تقديم تفسير لمختلف الفتن والثورات التي شهدتها المنطقة خلال القرن السادس هـ /12م،فإن معرفة تاريخ غمارة منذ الفتح الإسلامي بالمغرب تعتبر خطوة ضرورية لفهم ميكنزمات الانتفاضات الغمارية.

محطات هامة في تاريخ المنطقة،أو غمارة من الفتح الاسلامي إلى القرن السادس الهجري /12م.

تذكر المصادر بأن علاقة قبائل غمارة بالإسلام ترجع إلى مرحلة الفتوحات الإسلامية الأولى ببلاد المغرب(40) حيث أسلمت هذه القبائل على يد صالح بن منصور جد سعيد بن إدريس مؤسس مدينة نكور(41).غير أن غمارة ما لبثت أن "ارتد أكثرها لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام"(42).وإذا كانت المحاولات الأولى لنشر الإسلام بين قبائل غمارة قد تمت قبل مجيء موسى بن نصير ،فإن هذا الأخير ،وحسب رواية العبر ،هو الذي حمل هذه القبائل على اعتناق الدعوة،كما ساهمت غمارة كذلك في تكوين جيش طارق بن زياد عند فتحه الأندلس(43).وإذا كانت سبتة هي حاضرة المنطقة مع بداية الإسلام،والتي كانت مقر حكم أمير غمارة يليان،الذي ساعد المسلمين على فتح الأندلس رغم عدم إسلامه(44)،فإن هذه الحاضرة لم تلبث أن دخلت تحت طاعة الإسلام بعد تتابع الهجرات العربية إلى المغرب الأقصى(45).فهذه الهجرات كان لها دور في عملية نشر الإسلام في مختلف حواضر غمارة والمراكز القريبة منها كما هو الشأن بالنسبة لمدن"نكور"،"تطاوين"،"أصيلا" وطنجة(46).واستطاعت قبائل غمارة فرض سلطتها السياسية على سبتة بعدما تم تخريبها (47).وبعد قيام دولة الادارسة بفاس كانت غمارة تؤدي لها الطاعة(48).

وإبان الصراع الاموي الفاطمي بالمغرب الأقصى خلال القرن الرابع **هـ / 10م**(49)،خضعت مدينة سبتة،وكذلك غمارة للأمويين بالأندلس حيث قام أهلها بالدعوة السنية المالكية(50).غير أنه وفي نفس الفترة بقي التأييد والتعاطف قائمين مع الأسرة الادريسية،التي لجأ بعض أفرادها إلى منطقة غمارة،وأسسوا بها بعض المراكز مثل قلعة حجر النسر التي كانت ملجأ للادارسة(51).ولعل الدليل على استمرارية هذا التعاطف،هو أخذهم بالدعوة الادريسية بعد القضاء على الدولة العامرية،وتقديم طاعتهم إلى الحموديين،الذين لعبوا دورا مهما في الأحداث السياسية بالأندلس عقب الفتنة البربرية(52).وقد بقي هذا الولاء مستمرا الى قيام دولة المرابطين التي يقول عنها صاحب العبر إنها تمكنت من إخضاع غمارة،"فأقاموا في طاعة لمتونة سائر أيامهم"(53).غير أننا لا يمكن التسليم برأي ابن

خلدون هذا،خصوصا وأن مصادر أخرى تؤكد على أن هذه المنطقة عرفت في كثير من الاحيان ظهور حركات متمردة على المرابطين،كما تميزت بخروجها عن الولاة.وهذا ما فرض ضرورة تكثيف المراقبة العسكرية على هذه الجهة من خلال إقامة الحصون ومرابطة الجيوش(54).وما يلفت انتباهنا بخصوص المرحلة المرابطية،هو صمت المصادر عن ذكر أحداث الثورة والتمرد،باستثناء رواية البيذق(55) التي أشارت إلى قيام انتفاضة على عهد علي بن يوسف،ثم رواية ابن عذاري حول ظهور ثورتين على عهد يوسف بن تاشفين وخلفه(56)،ثم انفراد الشطيبي برواية عن ثائر بمدينة سبتة على عهد علي بن يوسف بعد ظهور المهدي بن تومرت في المغرب(57) فهل هذا يرجع إلى الحضور الأمني والعسكري للمرابطين بالمنطقة؟ أم أن الفترة لم تعرف ظهور زعامة روحية،أو شخصية جذابة تعمل على تحميس غمارة،وحثها على نبذ الطاعة؟.

لا يمكن للمصادر المعتمدة أن تقدم لنا جوابا صريحا على تساؤلاتنا،غير أن المعطيات المتوفرة تؤكد على أن الحضور المرابطي كان قويا ببلاد غمارة(58) مما أدى التقليل من حدة هذه الثورات وعددها.ويذكر ابن خلدون أن الفترة الموحدية قد مرت دون حدوث مشاكل في غمارة،ويرجع ذلك إلى اتباعهم الدعوة التومرتية قبل دخول المصامدة مراكش،كما يرجع ذلك إلى مشاركتهم في جيوش عبد المومن لمحاربة أهل سبتة"وبذلك رعيت لغمارة هذه السابقة سائر أيامهم "(59).إلا أننا لا نجد في النصوص الاخرى أثرا لذلك،بل إن المنطقة قد عرفت مجموعة من التمردات،وحاولت الخروج عن سلطة مراكش الموحدية،وواجهتها الدولة بدون رأفة ولا هوادة،كما هو الشأن مع ثورة مرزدغ وسبع بن منخفاد(60).

ساهمت المرحلة الممتدة من بداية الفتح الاسلامي بالمغرب الاقصى إلى قيام دولة المرابطين في تشكيل ذهنية المجتمع الغماري،الذي وصلته تأثيرات الخوارج(61)،وروجت فيه مفاهيم شيعية،نتيجة الصراع الاموي الفاطمي خلال القرن الرابع هـ/10م(62)،كما زادت فيه مكانة آل البيت محبة وتقديسا من خلال لجوء الادارسة إلى بلادهم،واتخاذ بعض أمراء هذه الأسرة لمراكز غمارية قاعدة لممارسة حكمهم(63).فهذه القضايا ستمكننا من فك رموز بعض الثورات والفتن التي شهدتها المنطقة.كما أن البحث عن الموروث الثقافي لهذه القبائل سيمكننا من الكشف عن جانب من ذهنية المجتمع الغماري خلال الفترة المدروسة.

غمارة وموروثها الثقافي:

تحاملت معظم المصادر على قبائل غمارة،فاتهمتها بالارتداد عن الإسلام(64)،ونعتتها بالخروج عن الحكام،ووصفت سكانها بالخيانة،وانتشار الفساد في مجتمعهم(65)،إضافة إلى تفشي ظاهرة السحر والكهانة بين صفوفهم(66).فقد جاء عند البكري أن حاميم تنبأ بجبل منسوب إليه في مجكسة ببلاد غمارة(68)،فتبعه بشر كثير أقروا بنبوته.كما أن عمة حاميم وأخته مارستا الكهانة والسحر(68).وظهر عندهم كذلك رجل من السحرة بجبال مجكسة يعرف بأبي كسية حيث كان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه،وإذا عصاه أحد أو خالفه "حول كساه الذي يلتف به،فتصيب ذلك الرجل عاهة لحينه أو جايحة وإن كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك"(69).وأشار البكري أن لبني أبي كسية(70) وعقبه منزلة ومرتبة وحظوة على غيرهم استمرت إلى القرن السادس هـ /12م إذا

ما جاز الأخذ برواية مؤلف الاستبصار (71).وكان عندهم شخص يعرف بامرئ"بوحلاوت" في بني شداد ببلد غمارة يخبر بما قد يحدث للأشخاص من مرض،أو موت،أوربح أو خسران(72).وكان عندهم كذلك قوم يعرفون بالرقادة يتنبأون بما يمكن أن يحدث في ذلك العام من خصب،أو جذب،أو حرب أو غير ذلك (73).وروي أن شخصا بمرسى بادس كان قصير القامة مصفر اللون،له قدرة على الإخبار بقرب الماء أو بعده،فكانت له مكانة بين السكان فيكرمونه ويقدمونه(74).هذه الصورة التي كونها البكري عن بلاد غمارة ستكررها المصادر اللاحقة،مع إضافة عنصر جديد يرتبط بالموقف الذي اتخذته قبائل هذه المنطقة من السلطة الشرعية مرابطية و موحدية ، وفي هذا السياق نورد النص التالي:"...وكان يسكنها غمارة إلى أن طهر الله منهم الارض وأفنى جمعهم وخرب ديارهم لكثرة ذنوبهم وضعف إسلامهم وكثرة جرأتهم وإصرارهم على الزناء المباح والموارية الدائمة وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق وذلك من الله جزاء الظالمين"(75).

إن هذا الموروث الثقافي لعب دورا مهما في تكوين ذهنية متميزة في المجتمع الغماري تؤمن بالخوارق والمعجزات،وتنجذب إلى أصحاب الكرامات.ساعدها في ذلك أن الذاكرة الغمارية تؤمن بقداسة مجالها.فقد ساد الاعتقاد بأن بلاد غمارة شهدت أحداثا ورد ذكرها في القرآن(76)،والمرتبطة بقصة موسى مع العبد الصالح(77).فينعتون موضعا ب"ماء الحياة" إذ يعتقد سكان هذه المنطقة أن هناك نسي فتى موسى الحوت(78).

فلا يمكن للفتن و التمردات،التي ستعرفها المنطقة خلال القرن السادس هـ/12م أن تشكل خطرا على السلطتين المرابطية والموحدية،إلا إذا استغل زعماؤها هذا المتخيل،الذي أصبح من الثوابت في ذهنية المجتمع الغماري.

منطقة غمارة في مشروع جهاد السلطة المركزية بالأندلس خلال القرن السادس الهجري /12م:

إذا كانت نصوص المؤرخين قد أجمعت على أن بلاد غمارة قد عرفت بخروجها عن سلطة مراكش المرابطية والموحدية،فإن ما يميز هذه المصادر كونها سكتت عن هذا الموضوع،ولم تشر إلا إلى القليل من هذه الثورات والتمردات.فبخصوص المرحلة المرابطية لا تقدم لنا الحوليات التاريخية أي خبر بخصوص تمرد هذه المنطقة باستثناء ابن عذاري والبيدق(79).فهل يفسر هذا السكوت بعدم أهمية هذه الثورات؟أم يرجع إلى موقف السلطة الشرعية بالمغرب من هذه القبائل(80)؟.تمكننا المصادر الجغرافية،خاصة الادريسي وصاحب الاستبصار،من تقدير حجم هذه الثورات ومدى خطورتها على الدولة المرابطية.فمؤلف "نزهة المشتاق" يقول عن بناء مدينة "بني تاودا" على عهد المرابطين أنها كانت "شبه الثغر سدا مانعا من طغاة غمارة العابثين بتلك النواحي المغيرين على جوانبها "(81).وفي هذا السياق يذكر مؤلف مجهول عن بناء هذه المدينة من قبل المرابطين "ليملكوا منهاجبل غمارة لتتابع نفاقه عليهم،وكان يسكنها ولاة المغرب منهم بالعسكر"(82).وتم بناء حصن "أمرجو" من طرف الملثمين،على حدود غمارة،"بالحجارة والجير لا يقدر أحد على هدم شيء منه إلا بالمشقة"(83).فإحساس المرابطين بخطر غمارة كان دافعا للقيام بعملية تمدين المناطق الواقعة شمال فاس من خلال بناء المدن والحصون

ذات الوظيفة الاستراتيجية والعسكرية.ولا يمكن تفسير دوافع هذه الفتن والتمردات خلال الفترة المرابطية إلا بعد تحديد موقف غمارة من السلطة الشرعية منذ خضوعها للدولة على عهد يوسف بن تاشفين.فقد جاء في القرطاس أن هذا الأخيردة استطاع فتح جميع بلاد غمارة،وجبالها من الريف إلى طنجة(84)،وكان ذلك عام 460هـ/1067-1068م ولم تزودنا المصادر بمعلومات أخرى حول كيفية خضوع هذه المنطقة للمرابطين.ويبدو في تقديرنا أن الحكام اللمتونيين حاولوا استقطاب أشياخ هذه القبائل حتى يتسنى لهم إخضاع كل جهات المغرب،وكذا انجاز مشروع توسعهم في بلاد الاندلس.هذا ما يستفاد من كلام ابن أبي زرع عند إشارته إلى قدوم أشياخ غمارة وغيرهم من زناتة والمصامدة،وتقديمهم البيعة ليوسف بن تاشفين"فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال،ثم خرج معهم ليطوف على جميع جهات المغرب قصد تفقد أحوال الرعية والنظر في سير ولاتهم وعمالهم"(85).فهذه السياسة التي اتخذها يوسف بن تاشفين مع قبائل غمارة لم تكن إلا خطة لضمان إخضاع منطقة سبتة وطنجة والتي كانت لا تزال تحت سيطرة "سكوت البرغوطي"(86).دليلنا فيما ذهبنا إليه،أن الامير المرابطي لم يرد الاقدام على سياسة الجهاد بالأندلس إلا بعد حصوله على طنجة وسبتة(87).ويتبين من خلال النصوص أن التأطير الإداري المرابطي لم يشمل بلاد غمارة.فمن خلال توزيع الولاة والعمال على مختلف جهات المغرب،لا تذكر المصادر بلاد غمارة ضمن هذا التقسيم(88).فهل يمكن تفسير ذلك برفض هذه القبائل الخضوع للسيطرة المرابطية؟أم أن هذه الجهة كانت خاضعة لتسيير صاحب فاس وأحوازها؟.

يظهر من خلال بعض الإشارات المصدرية أن المرابطين وجدوا صعوبة في ضمان تبعية هذه المنطقة لسلطتهم وهذا ما يفسر إجراء يوسف بن تاشفين لاخضاع هذه الجهة من جديد.فقد ذكر ابن أبي زرع أنه سنة 473هـ/1080-1081 م فتح الأمير المرابطي "مدينة كرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف..."(89).إن رفض غمارة الخضوع لسلطة الدولة المرابطية هو ما فرض على حكام المغرب اتخاذ تدابير أمنية لإخضاع هذه المنطقة من خلال تأسيس بعض المدن على حدودها(90)،والتي أكدت المصادر على مدى أهمية دورها العسكري في إجهاض تحركات غمارة(91).ويمكن حصر أسباب ثورات هذه القبائل في رغبتها في الحفاظ على خيراتها الفلاحية وكذا الاستئثار بمداخيل مراكزها التجارية.فالمصادر رغم معارضتها لموقف هذه القبائل لم يفتها التنويه بالأهمية الاقتصادية لبلاد غمارة(92).غير أن هجرة قبائل الملثمين وحلفائهم بعد قيام دولة المرابطين قد أدت إلى حرمان غمارة من مناطقها الزراعية(93).ويرجع سبب ذلك إلى الأسلوب الذي اتخذته الدولة ضد من عارضها حيث حكم المرابطون عليهم بالكفر فوجب قتالهم واعتبر مالهم غنيمة وفيئا،فآلت بذلك أرض غمارة إلى ملكية الدولة الجديدة(94).كما أن رغبة المرابطين في الاستفادة من خيرات هذه المناطق الفلاحية من جهة،وكذا ضمان جباية الضرائب من هذه البلاد من جهة أخرى،كان دافعا لبناء مجموعة من المراكز على حدود غمارة حتى يتم ضمان وصول موارد هامة لخزينة الدولة.فإلى جانب الدور العسكري الذي قامت به هذه الحواضر،وخاصة "بني تاودا"،فإن أهميتها تكمن كذلك في اعتبارها مركزا لاستخلاص الضرائب(95).ورغم أن المصادر تشير إلى اعتماد المرابطين على عهد يوسف بن تاشفين على الضرائب الشرعية(96)،مما يفسر أنها لم تكن مرهقة للسكان،فإن تعدد هذه المراكز

المنشأة على حدود بلاد غمارة،ستجعل كل الفئات المتواجدة على هذه المحاور أن تؤديها.ويظهر أن هذه العملية لم تكن مألوفة لدى سكان غمارة الذين كانوا يعتبرون البسائط،والسهول المجاورة "لبني تاودا"مجالا حيويا لهم.كما أن الوجود العسكري المرابطي بالقرب من ديارهم قد حرمهم من الاستفادة من المحور التجاري الذي كان يربط سبتة بفاس(97).يضاف إلى ذلك أن الدور الجديد الذي أصبحت تلعبه بعض الموانئ المجاورة لغمارة كقصر مصمودة وسبتة،اللتان زادت أهميتهما على المستوى الاستراتيجي حيث كانت تنطلق منهما الجيوش المتجهة إلى الأندلس لتنفيد عمليات الجهاد(98)،قد جعل المنطقة مركزا لتجمع الجيوش المرابطية في كثير من الفترات،مما فرض على قبائل غمارة شبه حصار وحرمها من الاستفادة من الاهمية التجارية للمدينتين(99).إضافة إلى أن سكان غمارة فرض عليهم ضرورة مضاعفة استغلالهم لغابة جبالهم قصد توفير الأخشاب لصناعة السفن من أجل تلبية متطلبات الجهاد بالأندلس(100).إن هذه المستجدات،التي ظهرت مع بداية وجود سلطة مركزية تحكم المغرب وتعطي أهمية لمشروع الجهاد بشبه الجزيرة،قد جعلت قبائل غمارة محاصرة غربا،من خلال الحضور العسكري المرابطي في سبتة وقصر المجاز،ومن الجنوب من خلال تواجد الجهاز العسكري المرابطي"ببني تاودا".ولجأت لذلك قبائل غمارة إلى أعالي الجبال فقامت بتشييد مجموعة من الحصون اتخذتها منطلقا للهجوم على المناطق الفلاحية الغنية بإنتاجها الزراعي،أو السطو على مراكز تجارية كلما سنحت لها الفرصة للقيام بذلك سواء على عهد المرابطين،أو على عهد الموحدين،كما سيتم تفصيله من خلال النماذج التي قدمتها لنا المصادر الوسيطية.

انتفاضات بلاد غمارة خلال الفترة المرابطية:

جاءت ردود فعل الغماريين في فترات مبكرة من قيام الدولة المرابطية،وذلك منذ عهد يوسف ين تاشفين حيث يخبرنا ابن عذاري عن قيام شخص يعرف ب" ابن الزنر"(101).غير أن صاحب البيان المغرب لا يذكر لنا أسباب خروج هذا الثائر.على أن سياق النص يوحي لنا بأن قيامه على المرابطين كان من اجل تحقيق أهداف سياسية واضحة.ذلك أنه استند في خروجه على ادعاء أنه ابن معنصر الزناتي(102)،الذي كان " صاحب فاس" قبل قيام دولة المرابطين.فاللجوء إلى هذا الادعاء يعطي مشروعية "لابن الزنر"قصد الخروج عن السلطة الشرعية(103).

وتفيدنا إشارات المؤرخين أن ابن معنصر الزناتي قد سبق له أن واجه الجيوش المرابطية التي كانت تريد السيطرة على فاس،حيث ظل "..يحارب لمثونة إلى أن اشتد عليه الامر وعظمت الحروب في بعض الوقائع ففقد،فلا يدري ما فعل الله به وذلك في سنة ستين وأربعمائة"(104).فهل هذا الزعيم القائم بغمارة،حاول استغلال هذه الرواية في اختفاء "ابن معنصر" قصد جر الأتباع من هذه القبائل؟.من الصعب الاجابة عن هذا السؤال،نظرا لأن رواية البيان لا تفيدنا بدقة حول العناصر التي شكلت دعامة لثورته.فابن عذاري ذكر خروجه ببلاد غمارة دون ذكر العصبية المساندة له بوضوح(105).

فهل يمكن الحديث عن القيام بمحاولة زناتية للوصول إلى السلطة،وأنها لجأت إلى بلاد غمارة مستغلة حصانة مواقعها من جهة،وتذمر قبائلها،من جراء ضيق مجالها بفعل الاستقرار القبلي اللمثوني على حساب أراضيها الفلاحية من جهة أخرى؟.فما يمكن قوله

اعتمادا على رواية البيان،أن تأييد قبائل غمارة لهذا الثائر كان منذ بداية خروجه على سلطة المرابطين.غير أن حدوث المواجهات العسكرية بيت الثائر وجماعته من جهة،والجيش المرابطي من جهة أخرى،قد جعل حدا للتأييد الغماري لهذه الثورة خصوصا بعدما تم قتل عدد مهم من أصحابه من قبل الجيش المرابطي(106).وما يفسر خطورة هذه الثورة هو استعمال كل الوسائل لاجهاضها،واستئصال شأفتها.فقد استعملت القوة العسكرية،كما لجأت الدولة إلى إغداق الأموال على قبائل غمارة للفتك بالثائر(107).كما تجسدت هذه الخطورة من خلال اهتمام المسؤول الاول داخل جهاز الدولة بالقضاء عليها وتصفية زعيمها(108).إن هذا الاهتمام من قبل القيادة المرابطية،هو ما يجعلنا نطرح التساؤل التالي:هل كانت الدولة المرابطية تحس باستمرارية خطر العنصر الزناتي؟أم أن اندلاع الثورة في بلاد غمارة كان هو الخطر الذي يهدد كيان الدولة؟.فكلا الاحتمالين وارد،ذلك أن ابن عذاري يخبرنا أن ثائرا آخر قام بعد ذلك على المرابطين ويعرف ب "ماخوخ الزناتي"بناحية تلمسان حيث "اختط بلدا لنفسه فخرج إليه يوسف بن تاشفين،وفر أمامه،وخرج من بلاده"(109).وهذا يدل على أن المسألة الزناتية لم يتم حسمها بعد ومن ذلك تتجلى خطورة ثائر بلاد غمارة.

أما بخصوص التساؤل الثاني،فلا نستبعد تخوف السلطة المرابطية من وجود الثورة في بلاد غمارة،خصوصا إذا علمنا أن قيامها صادف اهتمام الامير المرابطي بالقيام بمشاريع معمارية في مدينة سبتة،مثل بنيان جامعها الذي زاد فيه حتى أشرف على البحر على حد قول صاحب البيان(110) كما سبق تأسيس هذا الجامع بناء إحدى أسوار ميناء هذه المدينة(111).فهذه المشاريع وإن لم تستغل اليد العاملة الغمارية،فإنها تكون على الاقل قد استغلت أخشاب غاباتها مما جعل المنطقة تشهد ضغطا كبيرا للجيوش المترددة على جبالها وهذا من شأنه خلق ردود فعل غمارية تجاه السلطة المرابطية ثم التعبير عنها من خلال مساندة هذا الثائر.لقد فتح هذا التمرد عيون السلطة المرابطية على أهمية وخطورة بلاد غمارة،التي تعتبر من الناحية الطبوغرافية مجالا استراتيجيا مساعدا على الخروج عن سلطة الدولة.وهذا ما عبر عنه ابن خلدون في مرحلة لا حقة بقوله " ولهم بوعورة جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحق بهم من اعياض الملك،ومستأمني الخوارج إلى هذا العهد"(112).ولذلك أولى المرابطون أهمية للتأطير العسكري بهذه المنطقة،سواء في سبتة أو "بني تاودا"،هذه الاخيرة التي كانت معقلا للجيوش لدرجة أن صاحبها "ينالو" نعته البيذق بسلطان الغرب(113)،وهذا لا يفسر إلا بأهمية جيوشه،التي لعبت دورا كبيرا في إحباط المحاولات التمردية لقبائل غمارة على عهد الامير علي بن يوسف كما سنوضحه .

يحدثنا صاحب أخبار المهدي أنه في الوقت الذي كان فيه "محمد بن تومرت" بفاس قامت في بلاد غمارة ثورة تزعمها بعض أشياخ هذه القبائل(114).ولم تشر الرواية إلى سبب قيامهم سوى أن "ينالو" كان يومئذ "سلطان الغرب،وكان يسكن بني تاودا فخرج في ذلك الوقت ينالو لغمارة،وكان فيهم أقوام مخالفون عليه،فخرج إليهم ينالو وقتل منهم ثلاثة أشياخ:يكساس،وحيان،وسحنون،ثم قتل لجاية وساق رؤوسهم وعلقها في باب السلسة وأتا بغنائمهم "(115).ولا يمكن فهم أسباب هذه الثورة إلا في سياق الاحداث التي كانت تعرفها بلاد المغرب والاندلس خلال تلك الفترة.ذلك أن اندلاعها صادف عودة محمد بن تومرت من رحلته المشرقية وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(116).لقد وصل صدى أحداث

دعوة المهدي بن تومرت،وما جرى من وقائع مع اهالي المدن والقرى التي زارها أو مر بها،إلى بلاد غمارة.فرواية البيدق،الذي كان شاهد عيان على هذه الوقائع،لم تتحدث لنا عن اتخاذ موقف صارم ضد الفقيه السوسي على الاقل قبل مغادرته فاس،أي في وقت نشوب ثورة غمارة المذكورة أعلاه(117).ويظهر ان قبائل غمارة قد استغلت ظروف تواجد المهدي بن تومرت وأصحابه بفاس،وما وقع له مع تجار الالات الموسيقية حيث خلق جوا من الفوضى داخل هذه المدينة التي كانت تتميز بدورها التجاري الهام(118)،فقامت على المرابطين.كما ساهمت الحملات العسكرية المتكررة إلى الاندلس في قيام هذه الثورة التي اندلعت بعد الجواز الثالث للامير علي بن يوسف في فترة لا تتعدى إحدى عشرة سنة من500هـ إلى 511هـ/1106-1118م (119).ولا غرو فإن هذه الحملات العسكرية كلفت قبائل غمارة كثيرا،كما أدت إلى الزيادة في قيمة الضرائب وهذا ما تنبه إليه أحد الدارسين(120).ولعل هذا ما يفسر تزعم أشياخ القبائل لهذه الثورة التي قامت كرد فعل ضد محاولة تقليص النفوذ الاقتصادي لهؤلاء الشيوخ،خصوصا إذا علمنا أن هؤلاء يتمتعون بنفوذ سياسي واقتصادي داخل قبائلهم(121).وتتمثل خطورة هذه الثورة في استعمال العنف في مواجهتها من خلال قتل ثلاثة شيوخ وتعليق رؤوسهم في إحدى أبوب فاس(122).ولا يمكن تفسير هذا الاجراء إلا بمدى خطورة هذه الثورة التي اشتعلت داخل أوساط قبلية متعددة ببلاد غمارة،دليلنا في ذلك هو مشاركة ثلاثة أشياخ في قيامها.فهل يمكن الحديث عن تصدع داخل بلاد غمارة؟ أم انه لم يتم الاتفاق أو الاجماع حول قيادة موحدة للقيام بالثورة؟.

لقد أثارتنا مسالة أساسية ونحن نعالج وقائع هذا التمرد ويتعلق الامر بقرار الاعدام الذي لجأ إليه القائد العسكري المرابطي"ينالو" دون استشارة الاميرعلي بن يوسف.وهذا بخلاف ما وقع في الثورة السابقة على عهد يوسف بن تاشفين وما سيحدث مع ثائر ريف سبتة عام 520هـ/1126م.فعلي بن يوسف تمت استشارته في قضايا أقل من مسألة القتل (123)،فهل كان "ينالو" يتمتع بسلطة واسعة تمكنه من تطبيق قرار الاعدام؟أم أن الأمر لا يتعلق إلا بحالة استثناء نظرا لخطورة الثورة التي استدعت التعجيل بالقتل قبل انتشارها؟

رغم أن المصادر لا تقدم لنا معلومات حول حدود سلطة هذا القائد العسكري المرابطي،إلا أن الصورة التي كونها حوله البيدق كانت جد معبرة عندما نعته " بسلطان الغرب"،مما يدل على أن "ينالو" كانت له سلطة واسعة،كما ان إجراء القتل وتعليق الرؤوس في إحدى أبواب فاس يجسد مدى حضور الدولة وهيبتها والتي حاول أن يطعن فيها محمد بن تومرت من خلال نشاطه داخل حواضر المغرب الاقصى وفاس خاصة.

وإذا كانت الانتفاضة الغمارية الأولى،قد ارتكزت على زعامة قبليةحاولت أن تجذب إليها الناس من خلال إظهار قدرتها على الاختفاء والظهور في الوقت المناسب(124)،فإن الثورة الثانية قد سجلت تحولا آخر على مستوى قيادتها التي تزعمها شيوخ من غمارة ولم تنفرد بتدبيرها زعامة واحدة.فكانت بذلك مؤشرا على قيام فتن أخرى بالمنطقة كما هو الشأن بخصوص ثورة عام 520 هـ/1126م بحصن كركال كما سيأتي تفصيلها.

يذكر ابن عذاري أحداث هذه الثورة اعتمادا على رواية ابن حمادة الذي ذكر أن رجلا قام في ريف سبتة،في كركال،ادعى أنه الخضر(125).فقد جاء قيام هذا الرجل في منطقة غمارة في ظروف صعبة سياسيا على المرابطين،فإضافة إلى استفحال خطر الحركة

التومرتية(126).هناك المشاكل الاندلسية خاصة بعد اندلاع ثورة قرطبة عام 514 هـ/-1121-1120م(127).هذه الأخيرة اضطرت الامير علي بن يوسف العبور إلى العدوة للحد من هيجان أهل قرطبة(128).إن صدى هذه الاحداث الاندلسية خاصة،قد وصل إلى بلاد غمارة باعتبارها معبرا مهما للجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة.فكانت قبائل غمارة على بينة بخصوص انشغال الجيوش أو عدم انشغالها بمواجهة تمرد أو فتنة.ويبقى لاختيار ثائر كركال القيام على المرابطين في هذا الظرف بالذات له ما يبرره.فخلال هذه الفترة غيرت الدولة من سياستها الضريبية حيث زادت من قيمتها بعد فشل تحويل أملاك الخاصة إلى الدولة.فكانت حاجة هذه الأخيرة إلى موارد لخزينتها من أجل مواجهة التحركات النصرانية(129).كما انه قبيل قيام الثورة وقع تواطؤ بين النصارى المعاهدين في غرناطة وبين ابن رذمير النصراني من اجل تسهيل مأمورية دخوله المدينة،غير أن انكشاف امرهم جعل الامير "علي بن يوسف" أن يتخذ فيهم قرار الجلاء عن الاندلس عملا بمشورة الفقيه الاندلسي ابن رشد (130).هذه الاحداث كان لها وقعها في منطقة غمارة،وبالخصوص المناطق المجاورة لسبتة،والتي كانت على علم بكل هذه التطورات،فتحينت الفرصة للخروج عن السلطة المرابطية،فارتبط خروج غمارة بتأييد لزعيم ادعى أنه الخضر،فهذا الادعاء له دلالة مهمة على مستوى استمرارية حركته،وكان لذلك أثر كبير على حصوله على الاتباع.إن ادعاء هذا الشخص بكونه الخضر،قد أحيى في ذاكرة الغماريين قصة النبي موسى مع العبد الصالح الواردة في القرآن(131).ومما سهل على هذا الشخص مهمته كون هذه القبائل كانت تعتقد في قداسة منطقتها والتي كانت في الماضي محطة لقاء الرجلين(132).إن هذا الادعاء قد مكن على ما يبدو هذا القائم من الأدلة السلطوية التي تجعل من الناس يقدمونه عليهم ويحترمونه،خصوصا وأن إشارات المصادر تؤكد على انقياد قبائل غمارة لأصحاب الخوارق وكذا لممتهني السحر والكهانة(133).إن هذا القائم أراد أخذ ثقة الناس ليقوم بما شاء ولا يسأل عن أعماله(134)،ولو وصل الامر إلى حد القتل(135).ورغم أن رواية ابن حمادة الواردة في البيان لا تقدم لنا شاهدا على ما قلناه،إلا أن ذلك لا ينفي خطورة قيام هذا الرجل الذي تم القبض عليه وإشخاصه إلى سبتة قبل أن يتم توجيهه إلى مراكش حيث قتل وصلب(136).فالقيام بتنفيذ حكم الاعدام لم يتم على ما يبدو إلا بعد استفحال هذه الحركة ووجود أتباع لهذا القائم.وقد يكون هذا الاجراء كذلك بقرار من الحضرة المرابطية من اجل استعمال العنف ضد أي شخص أظهر زيغا عن الخط الرسمي للدولة خصوصا بعد استفحال خطر حركة المهدي بن تومرت.

إن قيام هذه الثورة قد كشف لنا جانبا آخر من طبيعة هذا المجتمع الغماري خلال الفترة المرابطية.فرغم أن احداثها تؤكد لنا صورة ذلك المجتمع الذي تسود فيه ظاهرة التنبؤ والاحداث الغريبة،إلا أنها وفي نفس الوقت أكدت لنا أن هذا المجتمع متمكن من مضامين النص القرآني،كما أن ادعاء هذا الشخص كونه الخضر لا يمكن أن يحصل على ثقة الناس فيه إلا بعد أن يثبت عندهم صلاحه وزهده.وهذا ما يجعل القول بأن المجتمع الغماري لم يكن فقط ذلك المجتمع المنحل الأخلاق،والمتهم بانتشار الفساد والانحلال،والابتعاد عن الاسلام،بل إن هذا المجال كان كذلك محطة استقرار الاولياء والصلحاء،فقد روى لنا "البادسي" مجموعة من سير الزهاد الذين استقروا بهذه المنطقة خلال القرن

6هـ/12م(137).لم تشر المصادر بعد هذه الثورة إلى أي تحرك غماري إلى حدود 537هـ/1142-1143م وما بعدها(138) عندما دخلوا دعوة الموحدين إبان حملة عبد المومن الكبرى لفتح المغرب حيث اتبعوا أمره وشاركوا في جيشه المحارب لسبتة،فذكر ابن خلدون أنه بذلك كانت لغمارة السابقة التي رعيت لهم سائر أيام الدولة(139).

وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤل التالي:ألم تشهد غمارة أي انتفاضة منذ 520هـ/1126م.

إن كل الظروف كانت مواتية من اجل القيام بالفتن والتمردات،خصوصا بعد انشغال المرابطين بحرب الموحدين وكذا المشاكل التي عرفتها الأندلس سواء من خلال ظهور بعض الفتن بمدن مثل اشبيلية وقرطبة،أو من خلال الضغط النصراني الذي أخذ يشن غارات متكررة على الحدود الإسلامية(140).كانت الأوضاع مشجعة للقيام على المرابطين بهذه المنطقة،غير أن سكوت المصادر لا يفسر إلا بالضغط الذي مارسته الدعوة الموحدية التي ألغت جميع التيارات الاخرى ذات البعد المذهبي،أو المرتبطة بأشخاص "كارزماتيين".ذلك أن العمل على إبراز شخصية"محمد بن تومرت"،والتاكيد على عدم تكرار نموذجها(141)،كان دافعا لعدم التأريخ لفتن وثورات غمارة(142) التي ارتبط قيامها بأشخاص متميزين على مستوى سلوكاتهم أو دعوتهم.فابن القطان الذي أرخ في الجزء المنشور من كتابه"نظم الجمان" للمرحلة الممتدة من 500-533هـ/1106-1139م،لم يشر إلى ثورة غمارة ضمن أحداث 520هـ/1126-1127م.في حين أنه ركز على الدعوة التومرتية،وما يدور في فلكها،وكأن التاريخ في منظوره هو تاريخ الموحدين وزعيمهم المذهبي " محمد بن تومرت"(143).كما أن الكتابات المرينية لم تشر إلى هذه الثورة أو غيرها في الفترة ما قبل الموحدية،لكونها لم تجد أي أي إشارة عند المؤرخين السابقين(144) ويستثنى من ذلك بيان ابن عذاري.

ثورات غمارة خلال الفترة الموحدية:

بخصوص فترة قوة الدولة الموحدية (145)،فتشكل ثورة غمارة على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف أخطر ثورات هذه المنطقة(146).بل إن المصادر المعاصرة أو القريبة من الفترة قد أعطت أهمية كبيرة لسرد وقائعها(147).وأمام توفر المادة المصدرية نسبيا بالمقارنة مع باقي تمردات غمارة،هناك تناقض في عرض وقائعها.فالبعض يقتصر على ذكر زعيم واحد كقائد لهذه الثورة وهو المعروف باسم"ابن منخفاد"،ويتم القفز عن ذكر زعيم آخر يعرف ب"مرزدغ الغماري"(148).فالكتابات الموحدية أغفلت الحديث عن مرزدغ" باستثناء البيدق،الذي أشار إليه في معرض حديثه عن الثائرين والخارجين على الموحدين(149)،ثم المراكشي الذي ربط ثورته بثورة "سبع بن منخفاد"(150).أما الكتابات المرينية،فينفرد ابن أبي زرع بتقديم بعض المعلومات عن ثائر غمارة الذي قال عنه بأنه غماري صنهاجي من صنهاجة مفتاح(151).بينما ذكرت الكتابات المشرقية وقائع ثورة غمارة هاته لكنها أعطت زعامتها لشخص آخر هو "مفتاح بن عمر"(152).ويلاحظ أن هذه الرواية قد أخلطت وقائع هذه الثورة،بقيادة مرزدغ،مع ثورة خلفه سبع بن منخفاد(153).فبماذا يمكن تفسير سكوت المصادر الموحدية تقريبا عن ذكر وقائع هذه الثورة؟أو تقديم معلومات غير كافية عن هذا الثائر؟.لا تسعفنا الإشارات القليلة في المصادر للحسم في الإجابة عن هذا التساؤل،إلا أن الأمر يرجع في نظرنا إلى خطورة هذه الثورة

التي شكلت قبائل غمارة دعامة أساسية لها(154).فتغييب هذه الثورة من بعض المصنفات التاريخية،أو الحديث عن زعيمها بشكل مقتضب في مصادر أخرى لا يمكن تفسيره إلا بحدة هذه الثورة.الشيء الذي جعل أحد مؤرخي الدولة المؤمنية والمكلفين بالدعاية لها،من خلال مشروع كتابته التاريخية،أن يقوم بتقزيم هذا الثائر من خلال صيغة التصغير حيث سماه"مزيدغ"(155).كما تتجلى أهمية هذه الثورة في كون صاحبها قام بعملية سك العملة باسمه وكتب فيها"مرزدغ الغريب نصر الله قريب"(156).إن ضرب السكة يعتبر خطوة مهمة نحو استقلال بلاد غمارة عن السلطة الشرعية الموحدية،كما أنها تمثل مظهرا من مظاهر انفراد "مرزدغ" بالسلطة.فهل كان يفكر في مشروع قيام دولة؟

لا تكشف المصادر عن دوافع هذه الثورة،غير أن استقراء الظروف العامة خلال فترة اندلاعها تمكننا من الوقوف على بعض الأسباب.

لقد ساهمت الأوضاع العامة بالمغرب في قيام هذه الفتنة حيث جاءت في مرحلة انتقالية من وفاة "عبد المومن" إلى مبايعة "الخليفة يوسف بن عبد المومن"،فكأن غمارة بزعامة "مرزدغ" استغلت ظروف وفاة الخليفة عبد المومن فقامت بالثورة(157).ولعل ذلك ما عبرت عنه الرواية المشرقية،خاصة صاحب الكامل،عندما ذكر أنه إثر تحقق الناس من موت عبد المومن ثارت قبائل غمارة(158).ومما شجعهم على تنفيذ خطتهم هو إحساسهم بانشغال الجيوش بحرب ابن مردنيش،أو الأعداد لها بالأندلس(159).كما أن تيقنهم بفقدان بعض المراكز لوظائفها العسكرية كان عاملا مهما للقيام بالثورة.فتفيدنا إشارات الجغرافيين أن "بني تاودا" تم تخريبها إثر الصراع والحروب العسكرية التي دارت بين المرابطين والموحدين(160)،غير أن خصوبة أراضيها وكذا أهمية المناطق المجاورة لها،هي ما أدت إلى تعميرها من جديد،إلا أن العدد كان غير كاف لجعلها تعرف ضغطا بشريا كبيرا خلال هذه الفترة(161).إن غياب التاطير العسكري جنوب بلاد غمارة،كان من العوامل التي ساعدت هذه القبائل على القيام بانتفاضتها،فكيف انتهت هذه الثورة؟.

لقد قامت في جهات مختلفة وساهمت فيها تجمعات قبلية متباينة من غمارة، صنهاجة، وأوربة(162).وكانت هذه المجموعات القبلية تتحرك في مجال جغرافي واسع،كما أن هذا التعدد يجعل من الصعب القول بأن هناك قيادة ثورية موحدة،إلا أن المصادر لا تشير في مرحلة أولى إلا إلى وجود زعيم واحد هو مرزدغ الغماري الذي نظم وأصحابه حملات على مدينة تاودة حيث أثخن فيها قتلا وسبيا(163).ويفسر الهجوم على هذه المنطقة دور العامل الاقتصادي في خروج هذه القبائل عن السلطة الموحدية،خاصة إذا علمنا مدى أهمية "بني تاودا" والمناطق المجاورة لها على المستوى الفلاحي ودورها في مراقبة محاور التجارة الآتية من مدينة فاس وإليها(164)،وذلك قصد الاستفادة من مداخيلها خصوصا وان قبائل أوربة المجاورة لهذه المدينة،قد شكلت جانبا من العصبية المؤيدة لهذا الثائر(165).لقد تطلب الموقف من المسؤوليين الموحدين ضرورة الإسراع بإجهاض محاولة الغماريين هذه وذلك من خلال اللجوء إلى عملية الاغتيال حيث بعث الخليفة يوسف جيشا من الموحدين،فقتل "مرزدغ" وحمل رأسه إلى مراكش(166).هكذا يتضح سبب قلة الحديث عن الثورة التي قادها "مرزدغ" في الكتابات الموحدية.فالمسألة لم تنحصر في تمرده على الجهاز الحاكم فقط،بل إن النزعة الاستقلالية التي طبعت هذه الثورة،والتي تم التعبير عنها

بسك العملة،هي ما جعلت المسؤولين في الدولة يضعون مسألة مواجهتها ضمن أولويات برامجهم.ذلك أن سك العملة يعتبر خطوة خطيرة أقدم عليها الثائر ليعطي لحركته بعدا رمزيا،كما اتخذ منها وسيلة أساسية للدعاية لنفسه.وهذا ما تحمله الكتابة المنقوشة فيها "مرزدغ الغريب نصر الله قريب"(167).فالقدرة على سك العملة تدل على ان الخليفة الموحدي لم يعد هو المحتكر لها بمفرده وهذا يعني إزالة ذلك الامتياز الذي يمكن أن يميز الحاكم والملك.كما أن سك العملة دليل على توفره على رصيد من المعادن الثمينة التي قد يستغلها الثائر في جر الأتباع (168).إن عملية سك العملة من قبل مرزدغ في هذا الظرف بالذات تعتبر مسألة مدروسة.فقد كان على علم بأن الخليفة أبا يعقوب يوسف لم يستطع إعلان نفسه أميرا للمؤمنين،وهذا ما تم تأكيده من خلال العملة التي تم سكها في مدينة بجاية حيث اكتفى الخليفة فقط بذكر الأمير الأجل(169).لذلك عزم الثائر على سك عملته التي لا تخلو من دلالات مذهبية.فهو يعترف من خلالها على أن النصر من الله قريب،مما يجعل من ثورته تستند على أسس مرجعية إسلامية تؤكد على أن ما يقوم به الثائر هو من تدبير الهي.ألا يمكن اعتبار ذلك محاولة للرد على مذهب الدولة الذي يؤكد باستمرار على أن الهدف عند الموحدين هو القيام "بالأمر العزيز وخدمته"؟(170) أليس ذلك تعبير ضمني عن طرح فكرة العصمة التي قال بها الزعيم المذهبي للدولة الموحدية؟.لا تساعدنا المصادر في الإجابة عن التساؤلين،غير أن ما يتضح من الإشارات القليلة،أن الثورة كانت تشكل خطورة على نظام الدولة الموحدية بدليل العدد الكبير من الأتباع الذين التحقوا بصفوف الثائر(171).ثم تجهيز جيش من الموحدين عمل على قتل القائم وحمل رأسه إلى مراكش(172).فهل هذا الإجراء الزجري أدى إلى إخماد الثورة في بلاد غمارة وناحيتها؟.يذكر الإخباريون بأن الثورة اشتعلت من جديد في بلاد غمارة،فهل يمكن الحديث عن استمرارية للإنتفاضة السابقة؟ أم أن هذه الثورة لا علاقة لها بالأولى؟ تتطلب الإجابة عن ذلك تحليلا شاملا لظروف قيام الثورة التي تزعمها سبع بن منخفاد(173) وتتبع مختلف أطوارها انطلاقا من مختلف المصادر الوسيطية التي تناولت بالحديث هذه الفتنة.

إن الظروف كانت مساعدة لاستمرارية خروج بلاد غمارة على الموحدين(174)،مما جعل الثورة تعرف مرحلة أخرى من اطوارها وذلك بانتقال الزعامة لشخص يعرف باسم"سبع بن منخفاد"(175).وإذا كانت المصادر الموحدية والمرينية قد تحدثت عن هذه الثورة(176)،فإن عمادنا في هذه الدراسة سيكون هو كتاب "المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة الذي احتفظ لنا برسالة في غاية الأهمية حول هذه الاحداث.فيقول عنها "أنها كافية بتاريخ فتنة غمارة والفتح فيها"(177).ويقول عنها الدكتور عبد الهادي التازي أنها "من أطول الرسائل الموحدية وأدقها وصفا،وهي سجل لتاريخ حوادث غمارة،تقع في خمس عشرة صفحة"(178).وإذا كانت ظروف قيام هذه الثورة هي نفسها بالنسبة لثورة مرزدغ،فإن الاستراتيجية التي نهجتها ثورة سبع بن منخفاد تختلف نسبيا عن الأولى.ذلك أن قبائل غمارة أخذت تهاجم خلال هذه المرحلة،بعض المحطات التجارية القريبة من المنطقة،خاصة قصر كتامة حيث أدخلت الرعب في صفوف سكانه(179).وهذا من شأنه عرقلة المشاريع التجارية،وتهديد منطقة لها وزنها في حركة العبور إلى الأندلس(180).إن إغراء السكان بالسيطرة على منافذ التجارة الصحراوية المارة عبر المراكز القريبة من غمارة،وربطها

بالموانئ المطلة على البحر الرومي (البحر المتوسط)(181).وكانت على ما يبدو من بين دوافع جر الأتباع،خصوصا وأن مجال تواجد قبائل غمارة قد تقلص بفعل تحركات قبلية من جنوب المغرب منذ وصول المرابطين إلى السلطة(182).كما أن رغبة القبائل في الاستفادة من مناطق فلاحية من خلال الحصول على الماشية والدواب،قد ساعدت دون شك على جر الأتباع واستقطاب الأنصار المؤيدين لسبع بن منخفاد(183).ومن اجل الوقوف على خطورة هذه الثورة سنقوم بتحليل وقائعها انطلاقا من الرسالة المشار إليها أعلاه.

تظهر خطورة هذه الثورة ومدى أهمية القضاء عليها بالنسبة للسلطة المركزية الموحدية من خلال ظروف وتاريخ كتابة الرسالة التي وجهها الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى غرناطة.فالخليفة لم ينتظر الوصول إلى العاصمة لكي يخبر بوقائع الفتنة بل إنه فضل إرسالها من ساحة وقوعها بجبل الكواكب(184).وهذا يعكس لنا بوضوح،أن مجال تحرك الثورة له أهمية استراتيجية،بالنسبة للدولة الموحدين،لكونه يرتبط بمشروع الجهاد بالأندلس،فلتحقيق هذا المشروع كان لا بد من القضاء على القبائل "المختصة بملكة جبل الكواكب،المشهور بالمنعة،ووعورة مسالكه"(185)،خصوصا بعدما استحكم فيهم الفساد،وتمكن منهم الارتداد على حد قول الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن في رسالته إلى أهل غرناطة(186).إن المسألة لا تتعلق بمواجهة انتفاضة عادية،فهي تمرد قبلي شمل قبائل غمارة وصنهاجة،وكانت الزعامة للأولى في شخص سبع بن منخفاد.وإذا كانت المصادر لا تقدم لنا معلومات عن هذا التمرد،إلا أنها تعترف له بالزعامة بالقيادة كما يفهم من اشاراتها إلى أنه ينتمي إلى أسرة لها وزنها داخل المجتمع الغماري.ويتجلى ذلك من خلال الوفد الذي ناب عن غمارة أثناء المقابلة السلمية مع الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن في جبال غمارة حيث ثم الاعلان من خلالها على وقف المعارك بين الطرفين والتعهد بأن يأتوا بجميع القبائل إلى "المحلات الموحدية في عيد الفطر"(187).فقد كان من بين هذه الجماعة التي تفاوضت مع الموحدين أخ ابن منخفاد ويعرف بعمران بن منخفاد(188).فالاعتراف الرسمي بذكر هذه الاسرة دليل على مكانتها داخل المجتمع الغماري.فالثورة حركتها أهداف قبلية ترتبط بالدفاع عن المصالح الحيوية للمجال الغماري،معتمدة على مناعة طبوغرافيتها من جهة،وتأطير زعيمها سبع بن منخفاد من جهة أخرى،فهل يمكن تحديد تاريخ قيام هذه الثورة؟.

إذا انطلقنا من الرسالة الرسمية يظهر بأن هذه الثورة بدأت قبل 562هـ/1167م،نظرا لأن التفكير في مواجهتها لم يتم إلا بعد استفحال خطرها:"فشا ضررهم،وساء أثرهم،وتعدى أذاهم،وسرت عدواهم"(189).وهذا ما يجعلنا نستنتج بأن فتنة غمارة،التي انطلقت منذ سنة 559هـ/1163-1164م،قد استمرت رغم مقتل مرزدغ الغماري،ولعل ذلك ما يفسر الاستعداد القوي للموحدين في مواجهة هذه الثورة"ولما صدقت لها الغزائم وشدت إليها الحيازيم،ووقع على قصدها التعويل والتصميم"(190).وهكذا فانتفاضة سبع بن منخفاد تعتبر مرحلة أخرى من مراحل ثورة غمارة على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي،ولا يمكن التأريخ لبدايتها فقط من سنة 562هـ/1167م.وإذا كان الامر كذلك،فما هي الأطراف القبلية التي شكلت دعامة لهذه الثورة في طورها الثاني بهذا المجال الواسع بشمال المغرب الاقصى؟.

إن الرسالة الرسمية تشير إلى مساهمة قبائل غمارة وصنهاجة،إلا أن ما يلفت النظر في هذا الصدد هو أن الجهاز الاداري الموحدي كان يميز جيدا بين التواجد القبلي الصنهاجي والتواجد القبلي الغماري(191).هذا على الرغم من كون المصادر التاريخية والجغرافية الوسيطية كانت تقدم لنا مجال تحركهم بشكل غامض.وكشفت رسالة الخليفة أبي يعقوب يوسف على مدى خطورة قبائل غمارة،مقارنة مع صنهاجة،التي كانت قادرة على نشر ونقل الثورة على نطاق أوسع(192).لذلك أولت الدولة الموحدية أهمية كبرى للقضاء على ثورة سبع بن منخفاد(193).وبعد انطلاق الحملة الموحدية بجبال غمارة توقفت نسبيا،وقد حاول الخليفة الموحدي تبرير ذلك بممارسة الشعائر الدينية التي يتطلبها شهر رمضان(194).غير أن واقع المنطقة على ما يبدو هو الذي فرض ذلك التوقف بحكم صعوبة المسالك،كما كان في نفس الوقت فرصة للموحدين من اجل استقطاب القبائل التي أظهرت التوبة "وتبدي الفينة والإياب وتلوذ بأكناف العفو،وتستمسك بأسباب الصفح،وتمد يد الضراعة إلى الإستقالة"(195).فالدخول في دعوة الموحدين أثناء ثورة غمارة لا يفسر إلا بالخوف الذي كانت تشعر به تلك القبائل،فكان تأييدها لسبع بن منخفاد في بداية الأمر ثقة في قوته وخوفا منه،ثم دخلت تحت سلطة الموحدين بعدما تيقنت من عزم الجيش الرسمي على استئصال شأفة القبائل الثائرة خصوصا بعد الانتصارات الموحدية الأولى التي حصلوا من خلالها على الغنائم والأموال(196).غير أن ذلك لا يدل على على أن هذه القبائل لم يكن لها أي هدف من وراء قيامها على الموحدين.فإمكانية الاستفادة من العمليات التي ينظمها سبع بن منخفاد ضد المراكز التجارية،والمناطق الفلاحية المجاورة لبلاد غمارة،كما هو الشان بالنسبة لقصر كتامة(197)،كانت من بين دوافع خروج هذه القبائل على الموحدين.ولنفس الدوافع ستعمل هذه القبائل على الخروج عن زعيمها سبع بن منخفاد والخضوع للموحدين الذين يقابلونهم "بعوائد هذا الأمر العزيز من إقالة العثرة،وتجاوز الزلة والسقطة،وتقريب الأسباب المؤدية إلى الاستيلاف،الآخذة بالأيدي بالتلافي عن مقاحم التلاف"(198).ولعل نفس الأسباب هي التي جعلت جماعة من الغماريين يقومون بتسليم زعيم الثورة حيث قتل وصلب(199).لقد عبرت رسالة الخليفة أبي يعقوب يوسف عن ذلك بوضوح فجاء فيها:"...فلعناية الله بهذا الامر العزيز وفق الله تلك البطانة،وأراهم رشدهم بالتقرب إلى هذا الامر العزيز،والتفادي منه،والتعدي عن شومه،والانتزاح عن شره،وما تحققوا من سوء عاقبته..."(200).

فإذا كانت الرواية الرسمية قد جعلت من هؤلاء الذين سلموا زعيمهم عقلاء،فلا شك أن الصورة التي رسمت لهم من قبل سبع بن منخفاد أنهم عناصر انتهازية وخونة أرادوا الاستفادة من الوضع الجديد الذي ستصبح عليه بلاد غمارة بعدما خضعت بشكل فعلي للسلطة المركزية ببلاد المغرب الاقصى الوسيط(201).ذلك أن الرسالة الرسمية كشفت لنا بشكل صريح بأن الموحدين لم يسبق لهم أن دخلوا في صراع عسكري حقيقي مع الغماريين ولا واجهوا تمردا في نفس تلك الظروف "ومقابلة أعداء لا يدري كيف توقيها،ومشاهدة أحوال على الجملة لا عهد بتلقيها،والأعداء يتربصون بهم وقوعهم في مثل هذه الحال..."(202).

فبعد هذه المواجهات تم تثبيت النفوذ الموحدي في بلاد غمارة بعدما أصبح "جبل الكواكب خاليا"(203).بصيغة أخرى تم القضاء على أصول الفتنة -من المنظور الرسمي- حيث يشير الخليفة يوسف في هذا الصدد "وهؤلاء القوم ومن انضاف إليهم ممن وقعت به هذه الواقعة ودارت عليه الدائرة،هم مقدمو غمارة ومستتبعوها ومغووها ومضلوها،وهم كانوا شوكتها الناكية، وثورتها التازية..."(204).وهكذا يتضح بأن الموحدين عندما قاموا بالقضاء سابقا على ثورة مرزدغ الغماري،فإن ذلك لم يكن يدل على إخضاعهم للمجال الغماري بأجمعه،بل إن الأمر أبعد من ذلك وهو أن بلاد غمارة لم تكن خاضعة بمفهومها السياسي والعسكري للسلطة المرابطية كذلك،إن ذلك ما نفهمه من كلام الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف عندما أشار بأن جبل الكواكب "كان أبلقهم الفرد،الممتنع على من رامه،المستعصب قديما على من كاده،فقد استفتح ممنوعه،وخلت من الظالمين ربوعه..."(205).فالمرابطون حاولوا التحكم في هذا المجال من خلال سلسلة من الحصون التي اقاموها على حدود بلاد غمارة مثل "بني تاودا"،ولم يحاولوا استئصال الخطر الذي يهدد السلطة المركزية،الشيء الذي جعل هذه القبائل لا تعرف انتفاضة عنيفة خلال المرحلة المرابطية.وذلك على الرغم من أن المصادر أشارت إلى "تتابع نفاق غمارة على المرابطين"(206).إن تمتع الغماريين بنوع ما من الاستقلال في تسير مجالهم خلال المرحلة المرابطية،واكتفاء المرابطين بمراقبة تحركاتهم من خلال حصون"بني تاودا"و "أمرجو"،هو ما جعل عنف تمردات غمارة لا يظهر لنا بوضوح من خلال النصوص.هذا إذا علمنا أن تسجيل الوقائع لا يتم إلا إذا كان الحدث له علاقة بالسلطة الرسمية،كانت مركزية أو محلية(207).وربما ذلك هو ما يفسر الصورة الباهتة لثورة مرزدغ،على الرغم من خطورة إجراءاتها المتمثلة في سك العملة،أمام ثورة سبع بن منخفاد التي لمعت في المصادر الموحدية والمرينية على السواء.وإذا كانت خطورة الثورة لا يشك فيها أحد،فإن الأمر الذي يجب التأكيد عليه هو أن اهتمام الخليفة الموحدي بها لا يتعلق بمحاولة لإسكاتها أو إخمادها فقط بل إن ذلك يدخل ضمن مشروع لتهدئة منطقة تعتبر ضرورية للعبور إلى الأندلس.ذلك أن ثورة بن منخفاد صادفت تطلعات لدى الخليفة أبي يعقوب يوسف في القيام بمشاريع جهادية بغرب الأندلس خاصة(208)،ومن هذا المنطلق اكتسبت هذه الثورة أهميتها وخطورتها.فالسلطة المركزية لم تكتف فقط بأخذ الغنائم وقتل زعيم الثورة بل قامت بتمشيط المنطقة وإخلائها من كل تحصينات دفاعية،وفي نفس الوقت كانت هذه الثورة فرصة للجيوش الموحدية للتمرس على هذه الجهة والتي ظلت مجهولة لديها كما عبر عن ذلك الرسالة الموحدية ذاتها(209).وإذا كانت محاولة القضاء على هذه الثورة مرتبطة بمشاريع للخليفة الموحدي،فإن الذي يجب أن لا يغيب عنا،هو أن الرغبة في ضمان موارد جديدة لخزينة الدولة كان بدوره حاضرا في هذه الثورة.فلم يعمل الموحدون إلا على إزالة سلطة احتكار قبائل جبل الكواكب للموارد الاقتصادية بمجال غمارة.فالسلطة المركزية لم تعد مقتنعة بفرض الضرائب والعمل على جبايتها من خلال مجموعة من المراكز على طول بلاد غمارة،بقدر ما كانت تريد الحضور الفعلي داخل هذا الوسط القبلي(210).فنظرة أولية عن قيمة الغنائم التي حصل عليها الموحدون تؤكد لنا مدى رغبة السلطة المركزية في القضاء على ذلك الاحتكار القبلي وإحلال احتكار الدولة محله.

الغنائم	العدد
البقر	12 ألف رأس
الغنم	27300 رأس
الدواب	617 رأس
السبي	3647 فرد

المصدر : ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة ص.244.

ورغم أن هذه الثورة شغلت السلطة المركزية قرابة شهر ونصف في مواجهتها،إلا أن نتائجها كانت ايجابية على مستوى ردع مختلف التمردات التي قد تحدث في بلاد المغرب والاندلس.ولعل ذلك ما جعل الخليفة أبا يعقوب يوسف يلح في نهاية الرسالة على ضرورة إشاعة الخبر "وتوفوه واجبه من النشر والإذاعة"(211)،"ليصلح به الفاسد،ويستقيم بها المائل"(212).كما أن هذا الانتصار شكل متنفسا للخليفة أبي يعقوب الذي أصبح قادرا على إعلان أنه امير للمؤمنين(213).لقد كانت ثورة غمارة فرصة بالنسبة لهذا الخليفة لتبرير تأخر تدخله بالأندلس قصد الجهاد ضد النصارى.فيشير الخليفة في هذا الصدد "فتعترض من أهل هذه المغارب شواغب يثيرها الجهال،ويبعثها النعقة الضلال،فلا يسع إهمالها ولا يسوغ الاضراب عنها،قياما بحق الدين،وتوقيا من استشراء الشر،وتوفر أسباب الفتنة،فينصرف إليها من الالتفات والقصد لحسم عللها وإبراء أدوائها،ما يقشع غياباتها ويظهر اقذاءها،ويفضي إلى المقصود الاول من التفرغ للجزيرة -مهدها الله- والتوطئة لأمرها..."(214).وإذا كان الموحدون قد أثبتوا تبعية بلاد غمارة من خلال محو أثر الفتنة من جبل الكواكب، فإن ابن صاحب الصلاة قدم لنا مظهر آخر لهذا الخضوع للدولة الموحدية عندما اشار إلى أنه "انقطعت فتنة الضلال الجهال،أهل الجبال،وتابوا وأنابوا ودعوا للجهاد فأجابوا"(215).إن مساهمة القبائل إلى جانب الجيوش الموحدية في عمليات الجهاد بالأندلس تم اعتبارها دليلا على هذه التبعية للسلطة المركزية،أفلا يمكن القول بأن استنفار هذه القبائل للجهاد كان هو أصل الخلاف وسبب من أسباب التمرد والثورة"(216)؟.منذ القضاء على ثورة "سبع بن منخفاد" لم تعرف منطقة غمارة ظهور فتن أو تمردات ضد السلطة الشرعية.فالمصادر لا تحدثنا عن وقوع أي انتفاضة في هذه الجهة إلا على عهد محمد الناصر(217).فقد شهدت فترة حكم هذا الخليفة قيام ثورتين الأولى منهما عام 600هـ/1203م والثانية حدثت عام 610هـ/1213م (218).ولا نجد أثرا للثورتين إلا في الكتابات المرينية خاصة منها،القرطاس،الذخيرة،وجني زهرة الآس.

فصاحب القرطاس لا يشير إلى أسباب قيام العبيدي عام 600 هـ/1203م بجبال ورغة.فقد أورد الخبرمرادفا لحديثه عن اكتمال بناء سور فاس على عهد الخليفة الموحدي محمد الناصر(219).في حين أن صاحب الذخيرة يشير بأن هذا الثائر ادعى أنه الفاطمي الذي ينصر الاسلام ويملأ الارض عدلا كما ملئت جورا(220).فالدعوة في أساسها لشخص يملك من القوة ما يمكنه من تغيير واقع يسود فيه الجور والفساد.فهناك رغبة في تجاوز هذا الوضع هي ما تعكسها لنا تبعية قبائل جبال غمارة لهذا الثائر(221).وحسب رواية الذخيرة أن هذا القائم لم تنحصر دعوته في هذه المناطق،بل إنها انتشرت في جميع الجهات حيث

سانده كثير من قبائل المغرب وبواديه(222).وكيف ما كانت درجة انتشار دعوة العبيدي إلا أن ما يهمنا،هي معرفة أسباب انتشارها،واعتناقها من قبل قبائل بلاد غمارة.فالمسألة تتطلب الرجوع إلى مختلف النصوص التي تتحدث عن فترة حكم الناصر،والتي أخبرتنا بأن المرحلة عرفت ظهور ثورات أخرى وفتن تزامنت مع قيام ثائر بلاد غمارة.فقد ظهر ثائر في بلاد سوس وجزولة، كما هو الشأن مع الثائر الجزولي، المعروف بأبي قصبة عام 597هـ/1200-1201م(223).وكذلك قيام الفتن بإفريقية (224).وتميزت الفترة كذلك بمحاولة القضاء على ما تبقى من المرابطين بالجزائر الشرقية وتتبع فلولهم بإفريقية(225).فبالإضافة إلى انشغال الموحدين بهذه الحروب فقد شهدت بعض المناطق تعسفات من طرف المسؤولين على الضرائب وجبايتها خاصة في فاس (226).يبدو أن ذلك كله قد مهد الظروف لقيام العبيدي عام 600هـ/1203-1204م،مستغلا استياء السكان بجبال ورغة.ولعل ما شجع غمارة على اتباع العبيدي هو شخصيته المتميزة حيث كان رجلا صالحا،متخشعا،كثير الورع،والعبادة على حد تعبير صاحب الذخيرة(227).فهل يمكن القول أن فقدان الثقة بالحكام الموحدين المحليين،والمكلفين منهم بالشؤون المالية خاصة،قد فرض على سكان غمارة اللجوء إلى أشخاص عرفوا بصلاحهم داخل المجتمع؟أم أن الأمر يتعلق فقط باتباع شخص زاهد تقربا منه وتقديرا له ؟.إن كلا التساؤلين وارد،فابن عذاري يروي لنا نصا في غاية الاهمية يتحدث فيه عن تعسفات العمال،الذين كانوا يتكلفون بالشؤون المالية والجبايات،بهذه المناطق خاصة على الطريق الممتدة من فاس إلى سبتة عبر قصر كتامة.حيث وقف الناصري في مرحلة لاحقة على تلاعباتهم،واختلاساتهم،مما جعل الخليفة يتخذ في حقهم العقوبات الشديدة"...فبسط السطوة على من كان منهم بمدارج الضرر أجمعين وأوقع العقاب منهم بالمستهزئين"(228).وهذا من شأنه خلق بوادر التوتر والرغبة في الخلاص من الحكام المحليين(229).لذلك يظهر الزاهد والناسك أنه يحقق ذلك النموذج المرغوب فيه داخل مجتمع فرض عليه البقاء في الجبال العالية،مع حرمانه من خيرات المناطق الفلاحية المجاورة،وكذا مداخيل مراكزه التجارية،والتي كانت قبل المرحلة المرابطية عنصر قوته(230).وهكذا كانت لشخصية العبيدي أثر كبير في ضمان تعلق سكان بلاد غمارة به خصوصا إذا ما علمنا المنزلة التي كان يحتلها الزهاد والمتصوفة عند هذه القبائل .فصاحب المقصد الشريف يقدم لنا مجموعة من أعلام التصوف الذين ظهروا في هذه المنطقة ووصل تاثير بعضهم إلى البلاط الموحدي(231).فلم تكن عيون السلطة الموحدية غافلة عما كان يجري في هذه المنطقة،وهذا ما يفسر قرار الحضرة الموحدية في القبض على العبيدي حيث قتل وحمل رأسه إلى الناصر فأمر أن يرد إلى مدينة فاس فعلق على إحدى أبوابها(232).إن خطورة هذا الثائر لم تظهر فقط على مستوى الاسلوب الذي تم القضاء به عليه،بل تجسدت كذلك على مستوى استمراريته في الذاكرة المغربية.فهو قد اعطى اسما آخر لإحدى أبواب المدينة المهمة "باب الشريعة"(233) الذي أصبح يحمل اسم باب المحروق نسبة لعملية الاحراق التي تعرض لها هذا القائم(234).كما ذكرت المصادر أنه عام 610هـ/1213م ولد ولد العبيدي بجبال غمارة حيث ادعى أنه الفاطمي،فبايعه خلق كثير من أهل الجبال والبوادي فبعث إليه الناصر جيشا فتم قتله(235).لقد جاء قيام ولد العبيدي عام 610هـ/1213م في ظروف ما بعد "معركة العقاب"(236) ليكشف عن استياء عام وقع لسكان الغرب الاسلامي

ككل،و المغرب الأقصى خاصة ومنه بلاد غمارة.فكانت بذلك الأرضية ممهدة للاعتقاد في ظهور المهدي خصوصا وأن هذه المنطقة قد سبق لها أن عرفت ظهور مثل هذه المعتقدات منذ فترات سابقة(237).فهل يمكن القول أنها دعوة الى إحياء المذهب الشيعي؟.إن ادعاء الهداية أو الترويج لفكر المهدي لم ينحصر خلال الفترة الموحدية ببلاد غمارة بل إن جهات متعددة من بلاد المغرب قد شهدت ذلك،واختلفت أسباب قيام أصحابها،كما تباينت أهداف مناصريها من القبائل .

خلاصات واستنتاجات

بالاعتماد على مصادر جغرافية،وكتب المناقب،والحوليات التاريخية،تم تسليط الاضواء على بعض جوانب تاريخ غمارة خلال العصر الوسيط.وتبين أن تحديد مصطلح غمارة يطبعه الغموض،وبأن مجال غمارة مطاط،يتسع ويتقلص حسب أهمية الحضور الفعلي للسلطة المركزية (مرابطية وموحدية)في تلك المنطقة.ومن خلال دراسة الامكانيات الاقتصادية والاستراتيجية،لهذه الجهة من المغرب الاقصى تم التوصل إلى تفسير مختلف أشكال الثورات الغمارية خلال القرن السادس الهجري/12م.وانتهى التحليل إلى أن الخط الرابط بين أسباب قيام مختلف الانتفاضات يتمثل في ظهور سلطة مركزية بالمغرب ضايقت قبائل غمارة في استغلال خيراتها،كما أن بروز فكرة الجهاد جعلت المنطقة معبرا للجيوش المرابطية والموحدية فضاعف ذلك من استنزاف ثروات غمارة،وكذا استغلال سكانها في صناعة السفن ومن أجل تلبية متطلبات الجهاد بالأندلس.فقامت ردود فعل منذ فترات مبكرة من إخضاع غمارة للمرابطين،على أن أخطر الثورات الغمارية تمت خلال بداية فترة حكم الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف عبد المومن الذي ظهرت معه فكرة ترسيخ نفوذ السلطة المركزية بشكل فعلي في بلاد غمارة.

الهوامش

1)- لقد أشار الباحثون إلى أن تحديد مجال منطقة غمارة يختلف من مصدر لآخر،انظر في هذا الاطار:

YVER(G)-GHUMARA,in ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM,T II,1965,P.1121

Mme BENRAMDANE(Zoulikha)-Ceuta aux XIII et XIV siécles,thése de 3 cycle « Histoire et civilisation »,Fac des lettres et sciences humaines,(AIX.Marsille 1),oct 1987,P.30-31

KABLY (M).-Societé ,pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen-age,(XIV-XV siécle),Ed Maisonneuve et la Rose ,Paris, 1986 P.34 , note.2.

2)- يشير البكري ومن جاء من بعده من الجغرافيين،وكذا ابن عذاري،وغيره من المؤرخين عند حديثهم عن مؤسس إمارة نكور،"يذكرون أنه على يديه تم إسلام قبائل غمارة وصنهاجة. وعند توزيع المغرب بين أبناء ادريس بن ادريس كان من نصيب عمر ابن ادرريس بلاد صنهاجة وغمارة .البكري،المغرب في ذكر بلاد افريقة والمغرب،نشر دي سلان،1965،باريز،ص . 91،مجهول،"كتاب الاستبصار" في عجائب الأمصار،تحقيق سعد زغلول عبد الحميد،دار النشر المغربية،الدار البيضاء،1985،ص . 136،ابن عذاري،البيان في أخبار الاندلس والمغرب،ج 1،تحقيق "كولان" و "إ.ليفي.بروفنسال"،دار الثقافة ،بيروت لبنان،الطبعة الثانية،1980،ص ،176،ابن أبي زرع،روض القرطاس ،ص 51.

3)- فصاحب مفاخر البربر عند حديثه عن قبائل "بني خطاب" قال بأنهم يوجدون في غمارة من صنهاجة الريف.مؤرخ مجهول،نبذ تأريخيه في اخبار البربر في القرون الوسطى،منتخبة من المجموع المسمى كتاب مفاخر البربر ،المطبعة الجديدة،الرباط،1934،نشر بروفنسال،ص.66.

4)- يشير البكري في كتابه إلى "بربر غمارة"ثم يذكر في موضع آخر من مؤلفه "بلد غمارة" ويتحدث في جهة اخرىمن نفس الكتاب عن "أهل غمارة".ويذكر الادريسي أن "بلاد غمارة " جبال متصلة بعضها ببعض"،ويقول عن " حصن مسطاسة" "بأنه لغمارة"،وعن جبال الكواكب يذكر الادريسي أنه كان يسكنها"غمارة".البكري،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ص.91-100-102،الادريسي،"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الثاني،المكتبة الدينية،بور سعيد،مصر،دون تاريخ،ص.532.

5)- ابن خلدون،العبر ،ج6 ،ص.249.

6)- ابن خلدون،نفس المصدر والصفحة،مجهول،مفاخر البربر،م س ،ص.71.وحسب موليراس أن اسم غمارة كقبيلة بربرية موجود قبل مجيء فتوحات عقبة بن نافع.MOULIERAS(A).-Le Maroc inconnu,2. partie,Paris,1995,P.251

7)- ابن خلدون،مصدر سابق،نفس الصفحة.

8)- مخطوط الخزانة العامة،الرباط،رقم ك 1275.

9)- أبي حيان،كتاب الانساب،ص 24-25.فقد أشار إلى القبائل التالية:"بنو اكترات" "بنو سكرو" في مدينة تيطاون بناحية سبتة،ثم بنو امرزوق سمغرت وبنو امعديد وبنو ادغاغ ومنهم قبيلة يقال لها "كتامة" وله سوق يقال له سوق كتامة.

10)- مؤرخ مجهول،مفاخر البربر،ص.71.

11)- نفسه،ص .64-65.

12)- ابن خلدون،العبر،ج 6،ص.249.

13)- نفسه،ص.250.

14)- ابن خلدون،العبر ،ج6،ص.249.

15)- نفسه،ص.250.ولعل ما يؤكد قول ابن خلدون،هو ما جاء عند صاحب مفاخر البربر بأن"بني حسان"فخد من غمارة،مؤرخ مجهول،مفاخر البربر،ص.67.

16)- أبي حيان،"كتاب الانساب"،ص .24.

17)- نفس المصدر والصفحة.

18)- الادريسي،"نزهة المشتاق"،ج2،ص.532-533.

19)- نفسه،ولعل ذلك ما جعل صاحب جذوة الاقتباس في مراحل لاحقة القول:"...ومن جبال مدينة فاس القريبة إليها جبال غمارة من اخصب جبال المغرب وهي الجبال المشهورة وغمارة أمة لا تحصا".ابن القاضي،جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس،القسم الاول،دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط،1973،ص.80.

20)- نفسه،ص.532.

21)- مجهول،الاستبصار،ص.190.

22)- ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،تحقيق اسماعيل العربي،منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،الطبعة الاولى،1970،ص.139.

23)- يطلق ابن سعيد على الجهة الساحلية من غمارة اسم "الريف"،ويبدو أن هذا المصطلح سيعمم في فترات لاحقة على المناطق الشمالية من المغرب الاقصى وخاصة النطاق الجبلي.ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،ص.139.ابن خلدون ،العبر،ج6،ص.249،الحسن الوزان،وصف افريقيا،ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الاخضر،الشركة المغربية لدور النشر المتحدة،الرباط،1980،ج1،ص.252.

24)- حول حصون غمارة،انظر:الادريسي،م س ،ج2،ص.532.

25)- نقصد بذلك تنقل قبائل غمارة وجيرانها بين الجبال المرتفعة من جهة وبين هجومها على أراضي فلاحية أو مراكز تجارية جنوبا من جهة أخرى.

26)-يضطر المؤرخون اللجوء إلى التعميم بخصوص التمردات والفتن التي تعرفها المنطقة،ونسوق مثالافي هذا الصدد من كتاب "الذخيرة السنية" المنسوب لابن أبي زرع حول قيام العبيدي عام 600هـ/1203 حيث

أشار الى ما يلي:"...فتابعه كثير من قبائل المغرب وبواديه وجميع جبال غمارة...".ابن أبي زرع "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية"،دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط،1972،ص.38.
27)- الادريسي، "نزهة المشتاق"،ج 2،ص.532.
28)- ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،ص .139.
29)- مجهول،الاستبصار ،ص.190.
30)- نفسه،ص.190-191.
31)- مثل بادس التي يقول عنها صاحب نزهة المشتاق أنها: "مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات،يلجأ إليها الغماريون في حوائجهم". الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.532.كما كشف المسح الاثري عن اهمية ميناء "تيكساس" خلال المرحلة الاسلامية.انظر في هذا الصدد:- عبد العزيز توري،المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة،مجلة كلية الآداب الرباط،عدد11،السنة 1985،ص.161.
32)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.529-533.ويقول عن "انزلان" وهو أول بلاد غمارة أنه عبارة عن مرسى فيه عمارة.الادريسي، م س ،ج2،ص.532.
33)- لقد كان قصر مصمودة مركزا مهما لصناعة السفن المخصصة لعمليات العبور إلى شبه الجزيرة،وهذا ما جعل سكان هذه المدينة يؤمنون العبور بين العدوتين إلى مراحل متأخرة بشهادة الحسن الوزان ،الادريسي، نزهة المشتاق،ج2،ص.529،الحسن الوزان،وصف افريقيا،ج1،ص.245.
34)-الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.529.
35)- نفس المصدر والصفحة.وحول هذا النشاط البحري بهذه المنطقة وغيرها من المناطق المطلة على الحوض الغربي من البحر المتوسط خلال العصر الوسيط يمكن الرجوع إلى مقال الدكتور محمد حمام ضمن أعمال الندوة الدولية حول: الغرب الاسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى التي نظمت بكلية الرباط في نونبر 1994.

HAMMAM (M) -La pëche et le commerce du poisson en mediterrannée occidentale (X debut XVI) .Tableau historicogeographique établi d'après les sources musulmanes,in travaux du colloque de l'occident Musulman et l'occident chrétien au moyen age,Fac lettres,Rabat,serie colloques ,N°481995,PP151-179.

36)- مثل صناعة شباك الصيد وكذا معالجة شجر المرجان.الادريسي ،نزهة المشتاق،ج2،ص.528-529.
37)- يذكر الادريسي أن شجر المرجان المصطاد بسبتة يتم تصديره إلى منطقة السودان الغربي وذلك بعد عملية تصنيعه.
- الادريسي ،نزهة المشتاق،ج2،ص .529.وقد أكدت الابحاث الأثرية على ان المنطقة عرفت مرحلة ازدهار اقتصادي خلال العصر الوسيط،سواء من خلال الشواهد الدالة على مشاريع الري والسقي،أو على الوقوف على الامكانيات الطبيعة التي توفرها السواحل المتوسطية بالمنطقة باعتبارها صالحة لرسو السفن.حول هذه الأبحاث الأثرية ونتائجها بمنطقة غمارة يكمن الرجوع إلى :

Premiére prospection d'Archéologie Médiévale et Islamique dans le Nord du Maroc,in Bulletin-d'Archéologie Marocaine,TXV,1983-1984,(plusieures chercheurs),PP.367-376 et PP.397-402.
JBALA -Histoire et societé (article:Archéologie et peuplement :les mutations médiévales:le cas de Targha,par Andre Bazana,Patrice Cressier et Abdelaziz Touri,Ed du CNRS,Wallada,Casa,1991;P307-329.
- عبد العزيز توري،المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة،مجلة الآداب ،الرباط،عدد 11،1985،ص.151-168.

38)- مجهول،الاستبصار ،ص 190.ويذكر الحسن الوزان في مرحلة متأخرة عن مدينة "أمركو"،والتي كانت تدخل ضمن المناطق المجاورة لغمارة في قمة جبل،وجدت بها اسوار قديمة تقرأ عليها بعض الكتابات اللاتينية حيث يقال أن الرومان هم الذين أسسوها.
الحسن الوزان،وصف افريقيا،ج1،ص.238.
39)- مجهول الاستبصار ،ص.191.لقد أكدت إحدى الأبحاث الأثرية في منطقة غمارة على أهمية التحصينات التي شهدتها بعض مراكز غمارة خلال المرحلة الوسيطية.JBALA,op.cit.P.317.

40)- حول هذه الفتوحات يمكن الرجوع إلى :-عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم،فتوح افريقية والاندلس،تحقيق عبد الله أنيس الطباع،الشركة العالمية للكتاب،دار الكتاب اللبناني،بيروت،لبنان،1987،ص.46-70.-أبو الحسن البلاذري،فتوح البلدان،مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان،دار الكتاب العلمية،بيروت لبنان،.1983ص.227-232،ابن عذاري،البيان المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ج1،دار الثقافة،لبنان،الطبعة الثانية،1980،ص.8-46.

41)-البكري،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ص.91،ابن عذاري،البيان المغرب في ذكر أخبار بلاد افريقية والمغرب،ج1،م س ص.176،ابن خلدون العبر،ج6،ص.251.

42)-البكري،م س ،ص.91،ابن عذاري ، ن م و ص . وبذلك لا نوافق الباحث المختار الهراس الذي ذكر بأن سكان غمارة كان تاثرهم باللغة العربية وبالاسلام أشد من سكان المناطق الاخرى.-المختار الهراس،تطور الهياكل القبلية شمال غرب المغرب،رسالة دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع،الرباط،كلية الآداب،ص.102.

43)-ابن عذاري،البيان،ج1،ص.42،ابن خلدون،العبر،ج6،ص.250.

44)-ابن عبد الحكم،فتوح افريقية والاندلس،ص.71-73.

45)-لما توفي "يليان" استولى العرب على مدينة سبتة صلحا من ايدي قومه وقاموا بتعميرها كما جاء عند ابن خلدون،العبر،ج6،ص.250.

46)-ابن خلون،ج6،ص.251.

بيصعين عبد الكريم،"الصراع الفاطمي الاموي في المغرب الاقصى خلال القرن الرابع الهجري"،دبلوم الدراسات العليا في التاريخ،سنة 1984،كلية الآداب،فاس،مرقونة،الفصل الرابع،ص.102-104.

47)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.250،البكري،م س ،ص.104.

فيذكر ابن خلدون تطور الاحداث في سبتة كما يلي:"...ثم كانت فتنة ميسرة الحقير وما دعى إليه من ضلالة الخارجية،وأخذ بها الكثير من البرابرة من غمارة وغيرهم فزحف برابرة طنجة إلى سبتة واخرجوا العرب منها وسبوها وخربوها فبقيت خلاء.ثم نزل بها ماجكس من رجالاتهم ووجوه قبائلهم،وبه سميت مجكسة فبناها ورجع إليها الناس واسلم.وسمع من أهل العلم إلى أن مات فقام بأمره ابنه عصام...".

48)- بعد تقسيم المغرب بين أبناء ادريس بن ادريس كان من نصيب عمر بن ادريس تيكساس وترغة وبلاد صنهاجة وغمارة،واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة،وما إلى ذلك من بلاد غمارة،ابن خلدون،العبر،ج6،ص.256.

49)- حول هذا الصراع الفاطمي الاموي يمكن الرجوع إلى :-بيصعين عبد الكريم،مرجع سابق،الدكتور الحبيب الجنحاني،دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي،دار الغرب الاسلامي،بيروت لبنان،الطبعة الثانية،1986،ص.155-177.

50)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.261.

51)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.256،ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.84.

52)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.259.

53)- نفس المرجع ص .262.

54)- مجهول،الاستبصار،ص.190،الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.532.

55)- البيدق،أخبار المهدي بن تومرت،ص.24.

56)- ابن عذاري،البيان المغرب،ج4،تحقيق الدكتور إحسان عباس،دار الثقافة،بيروت،لبنان،ط.الثانية.1980،ص.58 و 74-75.

57)- محمد الشطيبي،"مختصر من كتاب الجمان في أخبار الزمان"،مخطوط الخزانة العامة بالرباط،رقم D 579،وجه الورقة.147.

58)- مجهول،الاستبصار،ص.190،الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.528.

59)- ابن خلدون،العبر،ج 6ص.262.

60)- ابن صاحب الصلاة،المن بالامامة،ص.231-245،البيدق،أخبار المهدي،ص.86،ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،دار الغرب الاسلامي،لبنان،دار الثقافة البيضاء،ط الأولى 1985،ص.95-98،ابن ابي زرع،الأنيس المطرب بروض القرطاس،ص.209-210.

61)- لا تمدنا المصادر بمعلومات كافية في هذا الصدد،باستثناء الاشارة إلى كون الكثير من البرابرة من غمارة قد أخذوابالمذهب الخارجي دون ان نعرف ما إذا كان يوجد دعاة له هناك،ولا عن مدى تجاوب السكان مع هذا المذهب ابن خلدون،العبر،ج 6ص.250.حول ثورات الخوارج وتاثيرهم في المجتمع المغربي يمكن الرجوع إلى:محمود اسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب،دار الثقافة،البيضاء،الطبعة الاولى،1976،ص.62-81و ص.275-301.

62)- حول نتائج هذا الصراع يمكن الرجوع إلى:بيصعين عبد الكريم،الصراع الفاطمي الأموي بالمغرب الاقصى،مرجع سابق.

63)- لعل ما يعبر عن هذا التعاطف بين قبائل بلاد غمارة والاسرة الادريسية هو موقفهم من ابن أبي العافية عندما حاصر الادارسة في موقعهم"بحجر النسر"واراد استئصال وقطع دارهم حيث ذكر أبي زرع"فعذله على ذلك رؤساء المغرب وأكابر أهل دولته،وقالوا :أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين،هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له."ابن أبي زرع،الانيس المطرب بروض القرطاس،ص.84.

64)- نجد هذا الحكم كذلك عند بعض المعاصرين مثل"لويكي"عندما ذكر بأن غمارة عارضت الاسلام مدة طويلة واستمرت مخلصة للاعتقادات القديمة.

LEWICKI (Tadeusz)-Prophetes devins et magiciens chez les berberes medievaux,in Folia orientalia, TVII,1965,KRAKOW,1966P.10

-كما أشار الشيخ عبد الله بن محمد الهبطي في ألفيته إلى انتشار البدع بهذه المنطقة حيث خصص مجموعة من الابواب في هذا الصدد على مستوى التغيير الذي أحدثه سكانها في مجال الاعتقاد والحج والجهاد وفي أحوال الخاصة والعامة.فلا ندري هل يقصد بالتغيير ما حدث بعد مرحلة الغزو الايبيري؟أم هي مرحلة سابقة ترجع للعصور الوسطى؟.

-عبد الله بن محمد الهبطي،كتاب الالفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الاسلامية،مخطوط بالخزانة الحسنية،رقم 2808 انظر خاصة ص 2 إلى 38. غيرأن الملفت للنظر هو هذه النظرة التي كونتها هذه النصوص حول قبائل غمارة ذكر عكسها موليراس في نهاية القرن الماضي حيث أشار إلى ما تبقى من قبائل غمارة تفتخر بتقاليدها وتقوم بهجاء غيرها مثل "بني سميح"فقال أن غمارة تقول:بني سميح سمحوا في قاعدة غمارة وتبعوا قاعدة الريف،لأن غمارة كلها طالب وشريف وأما بني سميح غير المكحلة...والرديف..."Moulieras . op.cit.P.338 -البكري ،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ص .91.

65)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.532،مجهول،الاستبصار،ص.192.

66)- مجهول،الاستبصار،ص.192.

67)- البكري،م س ،ص.100.

68)- البكري،م س ،ص.100.فذكر بأن لحاميم"أخت تسمى دجو وكانت ساحرة كاهنة من اجمل الناس وكانوا يستغيثون إليها في كل حرب وضيق ويزعمون أنهم يجدون نفعها".-.LEWICKI (Tadeusz) op.cit.P.10.ويذكر موليراس بأن النساء في نهاية القرن التاسع عشر اتخذن قبر دجو أخت حاميم مكانا للزيارة وذلك رغبة منهن في أن يصبحن عرافات ويمتهن السحر وذلك في نهاية القرن 19.
MOULIERAS (A)-op.cit.P.346

69)- البكري،م س .ص..101

70)- فالبكري يذكر "ابن كسية" وصاحب الاستبصار يشير إلى "أبي كسية".

71)- البكري،م س ،مجهول،الاستبصار،ص..192

72)- البكري،م س .ص..101 LEWICKI (T) -op.cit.P.18.حيث يشير هذا الباحث إلى أن طريقة هذا الشخص تذكر بما هو موجود عند الشعوب السلافية.

73)- البكري،م س .ص.102.
74)- نفس المصدر والصفحة.
75)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص،532.
76)- سورة الكهف،قرآن كريم،"سورة الكهف"،من الآية 60 إلى الآية 70،محمد فؤاد عبد الباقي،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،مصر،الطبعة الرابعة،ص.389-390.
77)- والمقصود به هنا "الخضر".ويبدو في اعتقادنا أن ايمان سكان بلاد غمارة بهذه القصة هو ما دفع أحد المؤرخين ببلاد الريف أن يهتم بحياة الخضر وذكر طرف من أحواله.انظر :البادسي،"المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف،تحقيق سعيد أحمد أعراب،المطبعة الملكية،الرباط،1982،ص.44-48.ونفس الملاحظة تنطبق على المؤلف "أبو محمد عبد الله بن محمد الأوربي"،المتوفى عام 782هـ،في حديثه عن "مناقب أبي يعقوب البادسي" ضمن مجموع،مخطوط الخزانة الحسنية،رقم 9447،ص.241.حيث خصصها لذكر رؤية الشيخ رضي الله عنه للخضر عليه السلام".وقد ذكر هذا المؤلف مجموعة من الروايات تبين من خلالها مدى التقديس الذي كان يحضى به الخضر عند أهل بادس،ويظهر أن هذا الموقف لم يقتصر على هذه المدينة بقدرما كان يعبر عن إحساس عام لدى ساكنة شمال المغرب الأقصى المطل على البحر الرومي(البحر المتوسط)والذي كانت غمارة خلال المرحلة المدروسة تحتل جزءا هاما منه.وحول نسب الخضر وما ورود في ذكره من أخبار،يراجع:-ابن حجر العسقلاني،الزهر النضر في نبأ الخضر،شرح وتعليق سمير حسين حلبي،دار الكتاب العلمية،بيروت لبنان،الطبعة الاولى ،1988،ص.17-115.
78)- البكري،م س .ص.106.ابن فضل الله العمري،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،تحقيق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد،مطبعة النجاح الجديدة،البيضاء،1988،ص.137-138.ويلاحظ أن كلا من الادريسي وصاحب الاستبصار،اللذان اعتمدا في سرد أخبار غمارة على البكري،لم يثبتا في هذه المسألة.ويرجع السبيب في ذلك على ما يبدو إلى موقفها المعارض لتصرفات الغماريين وتمردهم على الحكام المرابطين والموحدين.
79)- فقد اشار ابن عذاري إلى ثائر على عهد يوسف بن تاشفين،وآخر على عهد خلفه علي بن يوسف في حصن كركال عام 520هـ/1126-1127م.أما البيدق فقد اشار إلى خروج قوم من غمارة على المرابطين أيام عودة ابن تومرت من المشرق وإقامته بفاس.البيدق،أخبار المهدي،ص.24،ابن عذاري،البيان،ج4،ص.58، و 74-75.
80)- نقصد بذلك الدول المغربية الوسيطية مرابطية،موحديةومرينية،فهذه الاخيرة كان لها موقف من هذه القبائل الغمارية التي شهدت،في كثير من الاحيان،ظهور فتن وثورات ضد حكام العاصمة المرينية فاس،وبما أن معظم المصادر الوسيطية المتوفرة ترجع إلى هذه الفترة،فلا نستبعد أن مؤرخي هذه الدولة قد تجنوا الحديث عن ثورات غمارة وحتى الذين أشاروا إليها لم يقدموا لنا تفاصيل عنها.
81)- الادريسي،ج1،ص.249.
82)- مجهول،الاستبصار،ص.189.
83)- نفس المصدر والصفحة .
84)- ابن أبي زرع،الانيس المطرب بروض القرطاس،ص.141.
85)- نفس المصدر ،ص.142.
86)- ابن أبي زرع،القرطاس،ص.142.
87)- نفس المصدر والصفحة.
88)- لقد جاء عند ابن ابي زرع أنه عام 467هـ/1074-1075م فرق يوسف بن تاشفين عماله على المغرب"فولا سيرى بن ابي بكر مدائن مكناسة وبلاد مكلاتة وبلاد فازاز وولا عمر بن سليمان مدينة فاس وأحوازها،وولا داوود بن عائشة سجلماسة ودرعة،وولا ولده تميما مدينتي أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وبلاد تادلة وبلاد تامسنا".ابن ابي زرع ،روض القرطاس،ص.142.
89)-ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.145.

90)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.249.مجهول الاستبصار،ص.189.
91)- البيدق،"أخبار المهدي بن تومرت"،ص.24،وحول الاهمية العسكرية لهذه الحصون وغيرها خلال الفترة المرابطية يمكن الرجوع إلى: LAGARDER(V) - Les Almoravides jusq'au regne de Yusuf. Btasfin (1039-1106),Paris,l'Harmattan,1989,PP.183-186.
92)- انظر ما ذكرناه في هذا الجانب المخصص لدراسة الاهمية الاقتصادية والاستراتيجية لمنطقة غمارة.
93)- ذلك أن قبائل لمطة استوطنت الاراضي الزراعية الخصبة المجاورة لبني تاودة القريبة من جبال غمارة.الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.249.وحول هجرة قبائل المرابطين،انظر حسن محمودود،قيام دولة المرابطين،مكتبة النهضة المصرية،1957،ص.215.وقد اشار أحد الباحثين على أن منطقة غمارة شهدت حركة هجرة سكانية من جهات مختلفة من جنوب المغرب خاصة من بلاد سوس.المختار الهراس،م س ،ص.108-109.
94)-عز الدين أحمد موسى،النشاط القتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري،دار الشروق،بيروت،الطبعة الاولى،1983،ص.131.
95)- لا زلنا نفتقر إلى دراسة دقيقة حول مسالة "الضرائب" بالمغرب الوسيط ورغم أن الابحاث التي ظهرت مؤخرا قد حاولت معالجة الموضوع غير أنها تلجأ إلى التعميم،ونشير في هذا الصدد إلى :عز الدين احمد موسى،النشاط الاقتصادي بالمغرب الاسلامي،ص.163-180،ابراهيم القادري بوتشيش،الحياة الاجتماعية في المغرب والاندلس خلال عصر المرابطين،رسالة دكتوراه الدولة في التاريخ،كلية الآداب مكناس،السنة الجامعية 1990-1991.
96)- ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.137.يقول عن يوسف بن تاشفين:"لم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية إلا ما امره الله تعالى به واوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والاعشار وجزية أهل الذمة واخماس غنائم المشركين...".
97)- فبخصوص الاهمية التجارية لمدينة فاس،ذكر الادريسي: انه "عليها تشد الركائب وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والامتعة الحسنة"،الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.246.وحول هذا الطريق التجاري الذي كان يربط سبتة بفاس،انظر:البكري المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ص.113-115.
98)-فقد سجلت لنا المصادر بخصوص الفترة المرابطية عدة حركات وتنقلات للجيوش المغربية إلى الاندلس حيث جاز الامير يوسف بن تاشفين أربع مرات وكذلك خلفه علي بن يوسف،مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية،تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار،دار الرشاد الحديثة،البيضاء،الطبعة الاولى،1979،ص.38-87.
99)-حول هذه الاهمية التجارية يراجع المبحث الثاني.
100)- حول أهمية أخشاب غمارة في صناعة السفن انظر: -ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،ص.139.
101)-ابن أبي عذاري،البيان المغرب،ج4،تحقيق احسان عباس،ص.58.
102)- حول ابن معنصر الزناتي راجع:ابن عذاري،البيان المغرب،ج4،ص.255.ابن ابي زرع،روض القرطاس،ص.112-113.
103)- إن الخروج عن المرابطين كان يفرض بالضرورة الاستناد على مشروعية،خصوصا وأن هذه الثورة جاءت بعد معركة الزلاقة،التي أخد فيها يوسف بن تاشفين مشروعية الحكم محليا،من قبل المغاربة والاندلسيين،وكذا على صعيد العالم الاسلامي بمباركة الخليفة العباسي وفقهاء المسلمين آنذاك ومن ابرزهم الغزالي والطرطوشي وقد تم ارسال مجموعة من الرسائل في هذا الصدد إلى يوسف بن تاشفين،وقد تم نشرها وتحقيقها بعناية الدكتورة عصمت دندش.د.عصمت دندش،دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب افريقيا،430-515 هـ،دار الغرب الاسلامي،الطبعة الولى،1988،ص.171-217.
104)-ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.112-113.
105)- ابن عذاري،البيان المغرب،ج4،ص.58.

106)- ابن عذاري،البيان،ج4،ص.58.
107)- نفسه ،ونفس الصفحة.
108)- نفس المصدر ونفس الصفحة.
109)- ابن عذاري ،ن م ،ص.58.
110)- نفس المصدر ،والصفحة.
111)- نفسة.
112)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.263.يبدو أن رواية ابن خلدون قد جعلت البعض يطلق حكما عاما على بلاد الريف كما هو الشأن بالنسبة ل »موليراس" في أواخر القرن الماضي عندما ذكر بأن الريف عرف كيف يحافظ على استقلاله منذ ما قبل التاريخ،وانه لم يخضع لسيطرة مختلف الحكام الذين تعاقبوا على حكم المغرب،كما أنه كان ملجأ للثوار والمنشقين.وحسب رأينا أن في ذلك مغالطة كبيرة ذلك أن وجود هذه الانتفاضات خلال القرن السادس الهجري/12م لا تنفي بأن المنطقة لم تخضع لسلطة مركزية،فمشاركة قبائلها في العمليات الجهادية بالأندلس هي من بين أجلى مظاهر هذا الخضوع.
MOULIERAS(A): Le Maroc inconnu, (premiere partie) exploration du Rif,1895,Librairie Colonial,Paris,P.35.
113)- البيدق،أخبار المهدي،ص.24.
114)- نفس المرجع ،ص.24
115)- نفسه. نفس الصحفة.
116)- حول هذه العودة إلى بلاد المغرب الاقصى وإلى حدود مغادرة المهدي لمراكش انظر: البيدق،أخبار المهدي،ص.20-29.
117)- انظر حول موقف السلطة من اعمال ابن تومرت:البيدق،أخبار المهدي،ص.24.فعندما احتج تجار الآلات الموسيقية،على ما قام به ابن تومرت واصحابه من تكسير الدفوف والمزامير وغيرها من الآلات الموسيقية،قال لهم قاضي المدينة ابن معيشة: "لولا ما ارى في السنة ما كسرها ومزقها،مروا فإنكم مخالفون للحق...".
118)- حول هذه الاحداث يمكن الرجوع إلى :البيدق،أخبار المهدي،ص.23-24.
119)- مجهول،الحلل الموشية،ص.85-87.ابن عذاري،البيان،ج4.ص.64.
120)- عز الدين أحمد موسى،النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي،ص.165-166.
121)- دليلنا في ذلك أن الجيوش المرابطية استطاعت الحصول على غنائم خلال هذه الحملة التاديبية،مما يفسر كذلك الرغبة في الحصول على موارد لخزينة الدولة كان هاجسا كذلك وراء القيام بهذا التحرك المرابطي إلى بلاد غمارة.البيدق،أخبار المهدي،ص.24.
122)- البيدق،أخبار المهدي،ص.24.
123)- ذلك ما حدث مثلا بخصوص محمد بن تومرت عندما نصحه مالك بن وهيب بسجنه،انظر:البيدق أخبار المهدي،ص.27.
124)- نقصد بذلك ادعاء "ابن الزنر" على أنه ابن معنصر الزناتي،مما يجعله شخصا متميزا داخل هذا المجتمع الغماري الذي ذكرت لنا المصادر ثقته في أصحاب الخوارق والكرامات.فالقدرة على الاختفاء لمدة ثلاثين سنة تقريبا بين دخول المرابطين فاس وقيام ثورة "ابن الزنر" ليظهر من جديد،تعتبر حدثا غير عادي بالنسبة لسكان قبائل غمارة.
125)- ابن عذاري،م س ،ص.74-75.
126)- يذكر ابن عذاري أنه في سنة 520هـ/1126م، "تواترت أخبار المهدي بمراكش وطاعت له الجبال كلها".ابن عذاري،البيان المغرب،ج 4ص.75.
127)- الحلل الموشية،ص.86-87.
128)- نفس المصدر ننفس الصفحة.
129)- عز الدين أحمد موسى، مرجع سابق،ص.133-134 و 165-166.

130)- ابن عذاري،مرجع سابق،ص.69-73.مجهول،الحلل الموشية،ص.91-97.
وحول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى دراسة:
LAGARDERE(V).-Communautés Mozarabes et pouvoir Almoradives en 519 H/1125 en Andalus,Studia Islamica ,LXVII,Paris,1988,G.P.Maisonneuve et la Rose,PP.99-119.

131)- سورة الكهف،من الآية 65 إلى الآية 82،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،م س ص.390-392.
132)- البكري م س .ص .106. ابن فضل الله العمري،مسالك الامصار،ص.137-138.
133)-يمكن الرجوع إلى المبحث الرابع.
134)- يتضح من خلال قصة العبد الصالح مع النبي موسى الواردة في سورة الكهف،أن من الشروط التي وضعها الخضر (أي العبد الصالح) من أجل السماح للنبي موسى بمرافقته هي أن لا يساله على أي فعل قام به.سورة الكهف،الآية 70،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.م س .ص.390.ويبدو في نظرنا أن ادعاء هذا الثائر كونه الخضر يقتضي مجموعة من الشروط ،من بينها أن تكون الفئة التي ستسانده على علم بسور القرآن واياته،خاصة سورة الكهف،ثم أن يتجلى هذا الثائر بمواصفات موجودة في العبد الصالح (الخضر) ومن أهمها،الاستقامة،وشدة العبادة...الخ.وحول هذه الصفات يراجع:البادسي،المقصد الشريف بذكر صلحاء الريف،ص.44-48.
135)- كما هو الشأن بخصوص قتل الخضر للغلام .سورة الكهف،آية 74،المعجم المفهرس،م س .ص 391.
136)- ابن عذاري،م س ،ص.75.
137)- البادسي،المقصد الشريف،ص.50 وما بعدها.
138)- غير أن رواية لمؤلف من جبال غمارة،عاش خلال القرنين 9هـ/15م و 10هـ/16م،ذكرت بأن هناك ثورحدثت بمدينة سبتة خلال عصر علي بن يوسف،وخاصة بعد رجوع ابن رشد إلى الاندلس بعد زيارته لمراكش عندما نصح الامير علي بن يوسف ببناء سور عاصمة دولته لمواجهة خطر الحركةالتومرتية.ونورد تفاصيل هذه الثورة في النص التالي: "...ولما رجع الامام ابن رشد إلى الاندلس قام الحاجب بسبتة وكان يتمذهب بمذهب الشيعة فأتاه علي بن يوسف وحاصره واخذه وقتله ومهذ المغرب كتمهيد أبيه يوسف..." .فالشطيبي ينفرد بذكر هذه الثورة التي كانت تهدف إلى احياء المذهب الشيعي بسبتة،وما يلفت الانتباه أن قيامها جاء في وقت متزامن مع قيام ثائر ريف سبتة في كركال.فلا ندري هل كان لثورة سبتة بزعامة الحاجب تاثير على قبائل بلاد غمارة؟أم قد يكون ثائر كركال هو نفسه الحاجب الثائر بسبتة؟محمد الشطيبي، "مختصر من كتاب الجمان في اخبار الزمان"،مخطوط الخزانة العامة بالرباط،ضمن مجموع،رقم D579،وجه الورقة.147.
139)- ابن خلدون،العبر ،ج 6،ص.262.
140)- إضافة إلى ذلك حدثت بعض الكوارث الطبيعية كما هو الشأن عام 532هـ/1137-1138م حيث ذكر ابن حمادة: "كان السيل العظيم بطنجة حمل الديار والجدرومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب".ابن عذاري،البيان الممغرب،ج 4،ص.96.
141)- حول هذه المسألة راجع:محمد الوزاد،مشكل الانسان في فلسفة ابن باجة،رسالة لنيل دكتوراه الدولة في الفلسفة،مرقونة،م س .ص.45 إلى 49،مع الاحالات،ص.232-233.
142)- وإذا ما جاز لنا الأخذ برواية الشطيبي حول ثائر مدينة سبتة،فإن المصادر الموحدية تكون قد تعمدت القفز عن ذكر أحداث هذه الثورة الشيعية التي قد تنافس الحركة التومرتية في جانب من مرتكزاتها المذهبية،ونقصد بذلك فكرة المهدوية و "العصمة".
143)- ابن القطان،نظم الجمان،تحقيق محمود علي مكي.
144)- ما عذا البيدق الذي تحدث عن ثورة غمارة على عهد علي بن يوسف بعد دخول ابن تومرت مدينة فاس.البيدق،اخبار المهدي،ص.24.
145)-أقصد بها الفترة الممتدة من دخول الموحدين مراكش عام 541هـ/1146م إلى وفاة الخليفة "محمد الناصر"في شعبان عام 610هـ/1213م.وأسست هذا الحكم اعتمادا على مدى حضور الوجود الموحدي

بالاندلس،ذلك أن المصادر أشارت إلى ان عمليات الجهاد قد تقلصت بشكل كبير منذ وقعة العقاب عام 609هـ/1212م.ورغم أن هذا التحديد يبقى نسبيا إلا أنه أصبح متعارفا عليه عند الباحثين المتخصصين.
146)- هناك عدة مؤشرات تبرر مدى خطورة هذه الثورة،ولعل من اهمها الاستعداد القوي عسكريا من قبل الموحدين لاخمادها،وكذا استمراريتها مدة طويلة من 559هـ/1163م إلى 562هـ/1167م،ثم المشاريع التي قامت بها السلطة الشرعية الموحدية بعد القضاء عليها،وقتل محركيها كما سيتم تفصيله.
147)- من أهمها " المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة:المن بالإمامة،من ص.231 إلى 245.والذي كان معاصرا لهذه الاحداث،نقل عنه ابن عذاري في البيان،قسم الموحدين،ص.95-97.
148)- فصاحب المن بالامامة ،المعاصر لأحداث هذه الثورة،لا يشير إلى زعيمها الاول مرزدغ.
149)- البيدق،م س .ص.86.
150)- عبد الواحد المراكشي،المعجب،ص.365.وقع في هذا الخلط كذلك باحث معاصر حيث جعل قيام هذه الثورة في 573هـ/1181م.عبد الرحمان الطيبي،المجتمع بمنطقة الريف قبل الحماية،رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ،مرقونة،1992-1993،ج1،ص.54.
151)- ابن أبي زرع،م س ،ص.209.
152)- ابن الاثير ،الكامل في التاريخ،ج9،ص.90،النويري،نهاية الارب،ص.431.
153)- في الوقت الذي تشير معظم المصادر أن تحرك الخليفة"يوسف بن عبد المومن" لم يتم إلا سنة 562هـ/1167م،لاجهاض ثورة غمارة بزعامة سبع بن منخفاد أن كلا من ابن الاثير والنويري،الذي نقل عنه،أشارا إلى أن الخليفة " يوسف بن عبد المومن"توجه مع أخويه عمر وعثمان عام 561هـ/1165-1166 هذا في وقت يشير فيه صاحب روض القرطاس إلى أن القضاء على ثورة مرزدغ تم بعد ارسال جيش من قبل الخليفة،دون أن يشير إلى انه قد ترأسه،ابن الاثير ،الكامل في التاريخ،ج 9،ص.90،النويري،نهاية الارب،ص.431.ابن ابي زرع،روض القرطاس،ص.209-210.
154)- ابن الأثير ،م س ص.90.ابن ابي زرع،روض القرطاس،ص.209.
155)- البيدق،م س ص.86.
156)- ابن ابي زرع م س ص.209.هذا في الوقت الذي لم يقم فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن بتركيز نفوذه وسلطته،ذلك أن العملة الاولى التي أصدرها الخليفة المذكور باسمه لا يظهر بها هذا النفوذ حيث اقتصر على ذكر:الامير الاجل أبو يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين.وقد تم العثور على نموذج لها تم سكه بمدينة بجاية التي اعترفت بسلطته عام 559هـ/1163م.
LAVOIX(Henri).-Catalogue de monnaies musulmanes de la bibliotheque nationale,Paris,P.300.
157)- ذكر لنا ابن صاحب الصلاة نصا في غاية من الأهمية حول استعدادات الخليفة عبد المومن للقيام بحملة جهادية إلى الاندلس منذ سنة 557هـ/1162م.فقد انبهر هذا المؤرخ بما توفر من أسلحة وخيول وملابس للجيوش الموحدية وغيرها من العرب وغيرهم وكذا ما صنع من سفن أغلبها تم في مرسى المعمورة(المهدية الحالية بالقرب من القنيطرة) إضافة إلى ما تم جمعه من القمح للجيش،وكذا الشعير للعلف،فتوفرت كمية هامة من ذلك حتى قال عنها صاحب المن بالإمامة أنها كأمثال الجبال.غير أن وفاة الخليفة عبد المومن حالت دون تنفيذ هذه الحملة الجهادية إلى الاندلس،بل إن ذلك لم يسمح باستغلال ما تجمع من حبوب التي اصابها التلف وفسدت لبقائها مدة طويلة امتدت من 557هـ/1161-1162م إلى 562هـ/1166-1167.ألا يمكن القول أن قبائل غمارة قد ساهمت في الاستعدادات التي تحدث عنها هذا المصدر ،خصوصا فيما يتعلق بصناعة السفن؟أو على مستوى المساهمة في تجميع تلك الكمية الهائلة من الحبوب ؟بل كان قيام غمارة بالثورة كرد فعل عن هذا الاستغلال؟أم هو رغبة في الهجوم على محلات تخزين هذه الحبوب وغيرها من خيول وأمتعة؟.ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة،ص.147-148.
158)-ابن الأثير م س ج 9ص.90.
159)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.198-200.
160)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.249.

161)- فقد ذكر الادريسي في هذا الصدد إلى تعميرها من قبل مائة رجل اهتموا بزراعة أرضها نظرا لخصوبة تربة المناطق المجاورة لها.
162)- ابن ابي زرع،م س ،ص.209.
163)- ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.210. في حين ذكر الناصري أن ذلك تم في مدينة تازا ويبدو أن صاحب الاستقصا قد وقع له خلط في ذلك خصوصا وأن مصدرا جغرافيا قد سبق وان ربط العلاقة بين مدينة بني تاودا وبلاد غمارة،الناصري،الاستقصا،ج2،ص.147.مجهول ،الاستبصار،ص.190.وكتب ابن ابي زرع بخصوص قيام " مرزدغ"أنه قتل الخلق الكثير في مدينة "بني تاودا".إلا أننا لا يمكن الاخذ كليا بهذه الرواية خصوصا أن المدينة تم تدميرها،كما أنها كانت اثناء اندلاع هذه الثورة لا تزال في الراحل الاولى من إعادة تعميرها.
164)-حول الاهمية التجارية لمدينة فاس يراجع :الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.246.
165)- ابن ابي زرع،م س ص.209.
166)- نفسه ن ص.210.غير أن البيدق يروي لنا قصة أخرى حيث يشير الى أن :"مزيزدغ الغماري القائم في واكرارن خرج إليه يوسف بن سليمان وبدد شمله،ثم وحد وأجيز إلى بر الاندلس إلى قرطبة".البيدق،أخبار المهدي،ص.86.
167)- ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.209.الناصري،الاستقصا،ج2،ص.147.وذكر أنه كتب فيها"مرزدغ الغريب،نصر الله عن قريب".
168)- لقد استرشدنا في تحليل هذه المسألة بالمقال القيم للباحث بنسالم حميش "في سيميائية الاستبداد أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية" حيث ذكر في هذا الصدد "فالامير الذي له القدرة على ضرب السكة،أي الذي يتوفر على احتياطي كاف من الذهب والفضة،يعزز سلطته إذ يفرض نفسه كضارب نقود حقيقي ووحيد ويصادق على الدخول في الاقتصاد الرمزي وفي التجارة والتبادل باسم الله وبأمره".د.سالم حميش،في سيميائية الاستبداد،أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية،ضمن كتاب جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب،افريقيا الشرق،1992،الطبعة الاولى،الدار البيضاء،ص.179.
169)- LAVOIX(H).op.cit.P300.
170)- انظر مثلا ما جاء في رسالة للخليفة أبي يعقوب يوسف أوردها ابن صاحب الصلاة، م س ،ص.292.
171)- ابن أبي زرع، م س ،ص.209.
172)- نفس المرجع،ص.210.الناصري،الاستقصا،ج2،تحقيق وتعليق الاستاد جعفر الناصري والاستاد محمد الناصري،دار الكتاب،الدار البيضاء،1954،ص.147.
173)- اختلفت المصادر في طريقة كتابة هذا الاسم،فقد ذكره ابن صاحب الصلاة باسم سبع بن منخفاد وذكره البيدق باسم سبع بن منغ فاد بن حيان،وأشار له ابن ابي زرع باسم مرزدغ الغماري الصنهاجي وذكره صاحب المعجب أن اسمه سبع بن حيان،أما ابن خلدون فذكره باسم سبع بن منغفاد،ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة،ص.231،البيدق،أخبار المهدي،ص.86.عبد الواحد المراكشي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،ص.365.ابن ابي زرع،روض القرطاس،ص.209.ابن خلدون،العبر ،ج6،ص.282.
174)- نقصد بذلك استمرارية الحروب ضد نصارى اسبانيا،وكذا تراجع الحاجز الامني الذي كان موجودا خلال الفترة المرابطية على طول بلاد غمارة.فبخصوص الهجومات النصرانية،نشير إلى الحروب التي شنها نصارى قلمرية على مدن غرب الاندلس ما بين 557هـ/1161م و 560هـ/1164م،ثم هجومات نصرانية على اراضي اسلامية أندلسية ما بين 546هـ/1151م و 563هـ/1167م.
انظر ،ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة،ص.283-284 و ص.288-289.
175)- ابن صاحب الصلاة،م س ص. 231و ما بعدها.
176)- نفس المصدر ،ص.231-245.- البيدق،أخبار المهدي،ص.86.- ابن ابي زرع،البيان،قسم الموحدين،ص.94-97.- ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.210.- ابن خلدون،العبر ،ج 6 ص.282.

177)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.244.فهذه الرسالة بعث بها الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن إلى بلاد العدوتين والاندلس،والنسخة التي قدمها ابن صاحب الصلاة موجهة إلى الطلبة،والموحدين،والشيوخ،والاعيان،والكافة بمدينة غرناطة،وهي من انشاء ابي الحسن بن عياش،ومؤرخة ب 14 شوال سنة 562هـ/3 غشت 1167م.وقد أوردها أحمد عزاوي كذلك ضمن دراسته. أحمد عزاوي،مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية،تحقيق ودراسة،رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ،مرقونة،1985 القسم الثاني،ص.42-48.

178)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.233، هامش.2.

179)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.232،ابن عذاري،م س ،قسم الموحدين،ص.95.وقد اعترف ابن الخطيب خلال القرن 8هـ/14م بالاهمية التجارية لقصر كتامة كما أكد على تسلل الغماريين إليه حيث جاء في كتابه معيار الاختيار:"...وطريقه مسلك القافلة،وببابه السوق الحافلة،ينسل إليها من غمارة قرود وفهود وأمة صالح وهود،ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود..."ابن الخطيب،كتاب معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار،تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة،مطبعة فضالة،المحمدية،المغرب،دون تاريخ،ص.149-150.

180)- حول أهمية قصر كتامة خلال هذه الفترة،انظر البيان،قسم الموحدين،ص.44،مجهول،الاستبصار،ص.189. حيث يشير هذا الجغرافي إلى ان الموحدين أحدثوا فيه "فندقين عجيبين،وتمدن هذا الموضع،وشرف وقصده التجار واستوطنوه".

181)- حول أهمية الطرق التجارية التي كانت تعبر المجال الغماري خلال الفترة المدروسة يمكن الرجوع إلى :

MASSIGNON (Louis).-Le Maroc, Tableau geographique,Alger,1906,PP.108-109.

182)- يشير أحد الباحثين بأن اهل غمارة يسود عندهم اعتقاد بأن بلادهم قد عرفت احتلالا في القديم من طرف سكان أهل سوس.1 COLIN(G.S).-Le Parler berbere des gmara,in Hespéris,1929 trimestre,PP.46-47

183)- إن النصوص لا تكشف عن ذلك بشكل صريح غير أننا نستنتج من خلال الغنائم التي حصل عليها الموحدون بأنها شملت الأبقار والاغنام والدواب فلا يستبعد أن تكون مما حصل عليه ابن منخفاد في حملاته على المناطق المجاورة.ابن صاحب الصلاة،م س ص.244.

184)- يشير موليراس إلى هذا الجبل باسم تزاران "Djebel TAZARAN" ،ويذكر بأنه جبل المنظر الجميل كما يسمى جبل الكواكب،لأن قممه تبدو وكأنها تلامس النجوم وذكر موليراس بأن بعض المغاربة كانوا ينطقون اسم هذا الجبل بتيزيران"TIZIRAN" ..MOULIERAS,op.cit.p.347.

185)- إن وعورة ومناعة هذا الجبل اعتبرها أحد الباحثين أنها من العوامل التي أدت إلى استمرارية اللسان البربري في غمارة الحالية.

COLIN (G.S).-op.cit.P.50.

186)- ابن صاحب الصلاة،م س ص .238. أحمد عزاوي،مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية،القسم الثاني،ص.45.

187)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.239.

188)- نفسه.

189)- نفسه ،ص.235.

190)- نفسه.

191)- نفسه ،ص.235.

192)- نفسه.

193)- نفسه.

194)- "...وآثارهم ما آثرناه من راحة الموحدين واجماعهم،وتفرعهم لوظايف صيامهم وقيامهم،وأن يكون غزوهم بعد الفطر على قوة ووفرة،ونشاط متمكن ...".ابن صاحب الصلاة،م س ص.237.

195)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.237.

196)- نفس المصدر والصفحة.
197)- هو المعروف حاليا بالقصر الكبير ويحمل اسم قصر صنهاجة وقصر عبد الكريم الذي يقول عنه الذكتور عبد الهادي التازي أنه أحد أشياخ كتامة الذين بنوا قصرا لأول مرة.ابن صاحب الصلاة،م س ص.232. وكذا هامش،رقم 1.وقد جاءت هذه المعلومات التي ذكرها عبد الهادي التازي عند أحد الجغرافيين خلال ق6هـ/12م.انظر مجهول،الاستبصار،ص.189.
198)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.237-238.
199)- نفس المصدر،ص.233 و ص.243.
200)- نفسه ،ص.243.
201)- "وسعوا في إحراز دمائهم وأموالهم،وتسويغ برد العافية لهم،وكل من قرع هذا الباب فهو له مفتوح،ومن استمنحه،فهو على عوايده مبذول ممنوح..".ابن صاحب الصلاة، م س ص.242.
202)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.240.
203)- نفسه،ص.241.
204)- نفس المصدر ،ص.242.
205)- نفسه،ص.242.
206)- مجهول ،الاستبصار ،ص.190.
207)- لعل ذلك ما جعلنا نتعرف على حادث انتفاضة غمارة على عهد علي بن يوسف أثناء وجود ابن تومرت في فاس حيث ارتبط الحدث بتنقل الجيوش المرابطية إلى غمارة بزعامة أبي عمر.
208)- فقد ذكر الخليفة أبو يعقوب يوسف في هذا الصدد: "...ونراه من الاهم الاعنى،والاول الأولى،قياما بحق الله في جهاد أعدائها ومكابري مناويها..." كما ذكر في موضع آخر "ورأينا في اثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميمنة المباشر أن نقدم بين أيدينا عسكرا مباركا من الموحدين..يكون تقدمه لجواز جمهور الموحدين ومؤذنا بما عزمنا عليه-والله المستعان-من التحرك يجملة أهل التوحيد والقصد لهذا الغزو الميمون الذي جعلناه نصب العين،وتجاه الخاطر..." وذكر كذلك " وما زلنا وفقكم الله على اتمام العناية بتلكم الجزيرة مهدها الله والحرص على تموينها،والإنتواء لنصرتها،والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة" ابن صاحب الصلاة،م س ص.293-294.
209)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.240
210)- فقد تم في هذا الاطار تعيين السيد أبي علي الحسن أخ الخليفة يوسف بن عبد المومن على ولاية سبتة وسائر بلاد غمارة،ابن خلدون،العبر،ج6،ص.283.
211)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.243.
212)- نفس المصدر،ص.244.
213)- حيث تسمى بأمير المؤمنين منذ سنة 563هـ/1167م،ابن صاحب الصلاة،م س ص.258.كما يمكن مقارنة عمليتين الاولى في بجاية والثانية في اشبيلية باسم الخليفة أبي يعقوب يوسف،الاولى فيها الأمير الاجل والثانية أمير المؤمنين.

LAVOIX (H).op.cit.P300-301.

214)-ابن صاحب الصلاة،م س ص.293.
215)- نفس المصدر ، ص .290.
216)- خصوصا وان عملية الجهاد تتطلب مساهمة الرجال والمشاركة في بناء السفن وتقديم الأموال.
217)- امتدت فترة حكم هذا الخليفة الموحدي من ربيع اول 595هـ/1199م إلى شعبان 610هـ/1213م.
218)- غير أن رواية متأخرة أوردها ابن القاضي في جذوة الاقتباس (من960 هـ-1025هـ)أشارت إلى ان ثورة حدثت مع بداية حكم الخليفة الناصر لم يتم ذكرها في المصادر الوسيطية.الشيء الذي دفعنا إلى التحفظ في ذكرها ضمن أشكال التمرد بمنطقة غمارة واخذ هذه الرواية عن ابن القاضي صاحب الاستقصا ثم مؤرخ آخر خلال القرن العشرين وهو أبو عبد الله محمد البزيوي حيث جاء في كتابه "تاريخ دول الاسلام بالمغرب الاقصى" ما يلي: "...ولما توفي يعقوب بن يوسف بويع بالخلافة على المغرب وافريقية

والاندلس ابنه محمد بن يعقوب،ولقب الناصر لدين الله،وثار عليه لأول ولايته علودان الغماري بجبال غمارة فسار أمير المؤمنين محمد بن يعقوب اليه وفتح جبال غمارة وأخذها من يد هذا المغتصب ثم رجع إلى مراكش.فحسب هذه الرواية لم تتم الاشارة إلى مقتل هذا الثائر،وإنما اكتفت بذكر القضاء على الثورة من خلال استرجاع الخليفة سلطته على هذه الجبال.فإذا ما جاز لنا الاخذ بمعطيات هذا النص يبدو أن الثورة لم تكن لها خطورة كبيرة رغم أن الخليفة الناصر هو الذي تولى إجهاضها،والامر لا يعدو أن يكون إلا محاولة للتملص من اداء الضرائب فكان قيام علودان وسيلة لتحقيق هذه الرغبة.ولعل ما يمكن الاستدلال به من خلال هذا النص هو توظيف مصطلح فتح مما يعني أن المنطقة هيمنت عليها سلطة الدولة من جديد،وأن أداء الضرائب مظهرا من مظاهر هذه الهيمنة والخضوع،كما أن ورود مصطلح "المغتصب" كإشارة للثائر تدل على الرغبة في الاستئثار بمداخيل هذه المنطقة من قبل هذا المتمرد وجماعته الغمارية،ابن القاضي/ جذوة الاقتباس،القسم الاول،دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط،1973،الناصري،الاستقصا،ج2،ص.214،أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله البزيوي،تاريخ دول الاسلام بالمغرب الاقصى،مخطوط الخزانة الحسنية،رقم 413،ص.60.

219)-ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.271.

220)- ابن ابي زرع،الذخيرة،ص.38.

221)- نفس المصدر،ص.38.

222)- نفس المصدر والصفحة.غير أنه في اعتقادنا يصعب الاخذ بهذه الرواية التي جعلت من جميع قبائل المغرب أتباعا لدعوة العبيدي.فلا ندري،من خلال المصادر المتوفرة،كيف يتمكن المؤرخ في تلك المرحلة الوسيطية من قياس مدى تبعية قبائل المغرب كلها كلها لهذا الثائر خصوصا وأن وسائل الاتصال كانت صعبة،إضافة أن فترة قيام هذا الثائر،حسب اشارات الجزنائي وصاحب الذخيرة والقرطاس وابن أبي زرع،دامت فترة قصيرة؟.علي الجزنائي،جني زهرة الآس،طبعة الرباط،1967،ص.43.

223)- ابن عذاري،البيان المغرب،قسم الموحدين،ص.239.

224)- قامت هذه الفتنة عام 599هـ/1203م حيث ذكر صاحب البيان "ووصلت الانباء بالفتنة المشتعلة بأكثر جهات افريقية وكثر عن العرب اشاعة المكروه والمجاهرة من السيئات،فأنف الناصر من سماعها واشاعتها".ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،ص.242.

225)- ابن عذاري،ص.239-248،عبد الواحد المراكشي ،المعجب،ص.451-452.

226)- يشير ابن عذاري على أنه سنة 604هـ/1207م ازدحمت على باب الخليفة قبائل من اقطار مدينة فاس وأخلاط من الناس مشتكين بعامل فاس وبعامل مكناسة فنكبا جميعا واستصفى ما وجد لهما من أحوال وأثاث وأموال وبقي كل منهما محبوسا في بلد عمله ،ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،ص.249.

227)- ابن ابي زرع،الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية،دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط،1972،ص.38.

228)- ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،ص.259.

229)- نقصد بذلك العمال والقائمين على شؤون المخزن في منطقة بلاد غمارة.

230)-.إن اهتمام الناصر بالمشاريع العمرانية بمدينة فاس قد فرض على ما يبدو على المسؤولين مضاعفة مداخيل خزينة الدولة الضريبية،ولا يستبعد ان تكون المناطق المجاورة لفاس هي المستهدفة بالدرجة الاولى من هذه العملية مما جعل جبال ورغة تكون منطلقا للثورة قبل انتشارها في بلاد غمارة.ومن بين هذه المشاريع نذكر إتمام اعادة بناء الاسوار التي بدأ بإنجازها الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور.كما أشار صاحب الدولة المشتبكة في ضوابط دار السكة الى بنائه لدار السكة بفاس.انظر حول هذه المشاريع وغيرها على عهد الناصر بفاس:الجزنائي،جني زهرة الآس،ص.43-44 و 92-93،أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم،الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة،تحقيق حسين مؤنس،مطبعة الدراسات الاسلامية مدريد،1960،ص.51.

231)- فقد أشار صاحب المقصد الشريف إلى أحد المتصوفة،بمنطقة بلاد غمارة يعرف باسم "أبي دادو مزاحم "،أرسل من وراءه الخليفة "أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن " إلى مراكش تبركا به لإزالة مرض

ألم به،فكان علاجه على يديه.وهذا ما يفسر اهتمام الموحدين بهذه المنطقة على مستوى تتبع أخبار زهادها أو الافراد الذين يتميزون عن باقي فئات المجتمع الغماري سواء أصحاب الكهانة والسحر أو الزهد والتصوف.البادسي،المقصد الشريف،ص.53-54.

232)- ابن أبي زرع،الذخيرة،ص.38.

233)- يذكر الجزنائي عن هذا الباب أنه "يدخلها الفارس بالعلم ولا ينثني الرمح لارتفاعها.وسميت باب المحروق من أجل أن العبيدي القائم بجبال ورغة لما أن ظفر به وقتل علق رأسه على باب الشريعة المذكورة واحرق جسده في وسطها وذلك يوم ركبت مصارعها بأمر الامير محمد الناصر بن المنصور سنة ستمائة".علي الجزنائي،جني زهرة الآس،طبعة 1967،ص.43وحول باب الشريعة بفاس وعلاقته بحادث هذه الثورة انظر:

PROVENCAL (E.L). -Islam d'occident « Etudes d'Histoire mediévale »,G.P.Maisonneuve et Cie,Paris,1948,PP.55-56 .

234)- الجزنائي،م س ص.43.

235)- ابن ابي زرع،م س ص.272.

236)- حول معركة العقاب،انظر: عبد الواحد المراكشي،المعجب،ص.456-458 ،ابن ابي زرع ،روض القرطاس،ص.238-241،ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،ص.263-265.

237)- نقصد بذلك مرحلة الصراع الاموي الفاطمي بالمغرب الاقصى خلال ق 4 هـ/10.